

المكتبة الثقافية

البحرني والغرب

(رؤية حضارية مقارنة)

د. مصطفى عبد الغني

الهيئة المصرية العامة للكتاب



اهداءات ٢٠٠١

المستشار / رابع لطفي جمعة

القاهرة

المكتبة الثقافية

٥٠٥

البحرني والغرب

(رؤية مضاربية مقارنة)

د. مصطفى عبد الغني



المكتبة الوطنية والأرشيف

١٩٩٥

الاخراج الفنى : محمد المحجوب

_____ إلى ابني أحمد _____

● مقدمة

هذه محاولة لفهم بدايات التاريخ العربى فى العصر الحديث . وهى محاولة كتبت بطريقة مغايرة الى حد بعيد .

فاذا كانت الدراسات السابقة — فى التاريخ الحديث — تولع بنقد النصوص وتحرى الاصول وتحديد العلاقة بينها والاحاطة بالقواعد المعروفة فى كتابة التاريخ ، فان هذه المحاولة تضيف ، الى هذا ، الافادة من بعض المدارس النقدية فى الغرب ، ولعل من أهمها (البنائية) (*) خاصة فى القسم الاول منها ، اذ بدت بعض تطبيقات (البنائية) فى الغرب تغرى الباحث للخروج من بنية الادب الى آفاق العلوم الانسانية والاساطير .

وكان الهدف من ذلك ان تركيز الضوء على حادثة بعينها ، بوسائل مغايرة ، يمكن أن يضيف الى الفهم السائد فيها جديدا ، كما ان الوصول من ذلك الى (دلالة) محددة ، يمكن استخدماها فى فترات زمنية واحداث أخرى بما يشبهه (القانون) التاريخى مع الوضع

فى الحسابان الاحتمالات التى تضيف الى الفهم ابعادا
أخرى .

وهو ما يحتاج الى استطراد .

اننا حين حاولنا استخدام (يوميات) عبد الرحمن
الجبرتى فى مقابل صحف نابليون بونابرت فى بدايات القرن
الماضى .. لم نحاول عزل هذه المادة التى بين أيدينا عن
بيئتها ، كأن نتعامل معها — كما هو الحال عند بعض
البنويين — كصوص مجردة منفصلة عن سابقتها ، ونشغل
فى البحث عن بنيتها اللغوية عن دلالتها التاريخية ، فلو
صح ذلك فى الأدب فإنه لا يصح فى الاحداث التاريخية :
السياسية والاجتماعية .. الخ ..

المسألة لم تكن نبداً من النص أم من خارجه ؟ انما
تحددت من أى عنصر نبداً انطلاقاً من الخط الذى يصل بنا
الى تفهم الحادثة فى ضوء الحركة التاريخية ، وفى ضوء
الدلالة التى تفرز المرتقب والمحتمل فى تطور الحركة
التاريخية .. !؟

وبذلك تصبح الحادثة بنية عضوية وليست معزولة ..

لقد حاولنا فى ذلك التوقف عند سنوات بعينها حتمها
التحليل المقارن بين النصين (عجائب الآثار / جورنال دى
لى جييت) ، خاصة الجزء الثالث من مجلد المؤرخ العربى ،
ومثيلتها فى صحف القائد الفرنسى (بين عامى ١٢١٣ —
١٢٢٠ هـ) أما السنوات الأخيرة من (العجائب) فلم

نضعها فى الحساب انطلاقاً من أن الهدف من الدراسة هنا كان لرصد خطوط الاتفاق والافتراق فى لقاء الشرق بالغرب .

ان اللقاء بين الشرق والغرب فى فترة زمنية محددة كان أكثر ما يعنينا لفهم طبيعة هذه العلاقة ، ليس فى هذه الفترة فقط وإنما — كما أسلفنا — لاستخلاص (القانون) الذى نستطيع فى ضوءه تفهم استجابات أى من الطرفين ازاء الآخر فى أية فترة زمنية تالية ، كذلك — وهو ما يهمنا — درجة استجابة الطرف العربى وتفهمه لما يجرى ..

لا يعنى هذا اننى أهملت أى جزء من الاجزاء الاربعة (العجائب) للجبرتى أو أية صفحة من صفحات (كورييه) نابليون ، بل اننى حاولت ان اضع أولويات زمنية للبحث مع تفهم الخارطة العامة .

وخلال ذلك كله كان علينا أن نتتبع فى الطرف الاول موقف فئتين اثنتين : علماء الدين والرأسمالية الوطنية لنحاول الاجابة عن عديد من التساؤلات .

وقد عنيت فى القسم الاول بدرجات الخلاف بين الحضارتين ، فى حين أطلت فى القسم الثانى لتبين المشاعر الحقيقية لتفهم مشاعر الفئة المميزة لعلماء الدين عندنا وطبقتها الرأسمالية (الجبرتى رمزاً) ، وانتهيت من هذا كله الى حقيقة حاولت البرهنة عليها من خلال موقف أو درجة الانبهار التى سيطرت على (العالم) عندنا أكثر من الاعجاب والذهول ..

وهو موقف اثر فى مكانة عالم الدين (والمتقف) فيها
بعـد .

لقد كان عبد الرحمن الجبرى ينتمى الى الفكر التقليدى
رغم وعيه ، هذا الفكر بكل آلياته القديمة حين يصطدم
بفكر آخر مغاير له فى النوع ، مختلف عنه فى السياق
التارىخى والحضارى .

والمغايرة هنا هى التى تفسر حالة (الدهشة) ، وهى
(الدهشة) التى جعلت الجبرى يرى بعض الاشياء بغير
وضوح كامل ، أو حاول الا يخرج عن ترائه الروحى بعيون
قديمة الى هذا الواقع الجديد وسياقه المختلف .

لقد قبع الجبرى طويلا فى التاريخ ، وحين خرج الى
الحاضر الراهن له ، لم يحاول أن يصيغ التاريخ فى لحظة
الوعى بسياق حضارى مغاير ..

• كان التاريخ يؤثر فيه فيلوم .

أو الراهن يؤثر فيه فيدهش

وفى الحالين التبتت الرؤية التى مازلنا نعيشها
حتى اليوم فى تعاملنا نحن (الشرقيين) مع الآخر ..

وقد كان ذلك كله وراء عدة تساؤلات حاولنا الاجابة
عنها :

— ما سبب تدهور البنى السياسية والاجتماعية
والفكرية لوطننا العربى ابان مجيء المحتلين الفرنسيين ؟

— كيف أخطأ عالم الدين (= المثقف) فى فهم هذه التحولات ؟

— وكيف أخطأ فى فهم سبب مجيء أولئك الغربيين ؟

— وكيف أخطأ الفرنسيون فى فهم موقف الشرقيين ؟

— لماذا فشل المثقف العربى حينذاك فى فهم دوافع المستعمر وراء سعيه لاقامة محاكمة (سورية) لسليمان الطبلى قاتل كليبر ؟

— وكيف فشل فى تفهمه لموقف الفرنسيين حين أقاموا لسليمان (الخازوق) ولرفاقه التمثيل بالراس بطريقة بشعة ولثلاثة أيام ؟

— وكيف فشل فى تفهم حقيقة ان حضارة الغرب هى حضارة عنف ؟

أسئلة كثيرة حاولنا الاجابة عنها ، وهو ما انتهى بنا الى هذه الدراسة المقارنة ..

د . مصطفى عبد الغنى

(*) حاولنا أن نسلك طريق جديدة فى فهم التاريخ ، فإذا استثنينا دراسة مثل دراسة بورديو .

Homo a cademicvs Pierre Bourdieu les Editions de Minuir, Paris, 1984.

لانتبهنا الى ان احدا فى التاريخ الثقافى لم يستخدم — خلاصة فى الشرق — الفهم البنيوى لدرس التاريخ العربى .

• تمهيد

مصر قبل الحملة الفرنسية

ان تركيز الضوء على ظاهرة ما في لحظة متوقفة عبث
لا طائل وراءه ، فمن الخطأ ان تتعامل مع هذه الظاهرة أو
تلك بشكل (آلى) في لحظة متفردة لتفصل ما قبلها عما
بعدها ، أو تقتصر على رؤية الانسان في التاريخ بوصفه
(هيكلًا تصوريا) للانسان .

وهذا الخطأ الذي يقع فيه كثير من الدراسات
المعاصرة لا يمكننا من تفهم دلالات الحاضر في ضوء الماضي ،
ووضع قانون مصفر للأشياء نستطيع به تفسير ما سيجري
في اللحظة المقبلة ، ومن هنا ، فنحن في خلاف دائم مع
فلاسفة التاريخ الأمريكيين ، خاصة ، ممن جاهدوا لتصبح
النزعة التجريبية الوضعية لها سيادة مطلقة ، كما اننا في
خلاف دائم مع أولئك المؤرخين التقليديين أو (كتبة) التاريخ
المحلى ممن يحاولون فهم هذه الظاهرة أو تلك بمعزل عن
السياق التاريخي ، وهو ما يخالف كثيرا من المراحل للفهم
النقدي للتاريخ وطبيعة رسالته .

وهذا الفهم الرتيب الخاص بالمنهج لا يقتصر على تصور

الوعى الشخصى فقط ، وانما يجاوزه فى تصور الوعى فى فهم العملية التاريخية ، فالظاهرة فى اطارها الزمنى ليست منبئة الصلة بغيرها فى البنى السابقة عليها . ومن هنا ، لا يمكن أن نرى فى محاولات « البنائية » فى هذا الصدد فائدة كبيرة لتقصى الدلالة ، فمن الصعب بمكان أن ننظر الى الحادثة التاريخية فى اطار محدد يختلف عن العالم ولا يتماشى مع بقية أفعاله الاخرى ، وان كنا نتفق معها ، بالضرورة ، فى محاولة فهم الظاهرة للقبض على هذا النظام المصغر ودلالاته بغيره ، لنستطيع ، من ثم ، فهم النظام العام وأحكامه .

والأكثر من هذا دلالة اننا وحتى فى البحث عن قانون داخلى أو — حتى — شفرة تكشف عن حركة الابنية الداخلية للحادثة ، فاننا لا نستطيع تجاهل علاقة هذه الشفرة بغيرها ، على افتراض انها يمكن أن تمثل فى لوحة الفسيفساء (زمنيا) جزئية تكرر نفسها فى متتالية دائمة مستمرة .

وهنا ، نجاوز حركة (العدسة) المتوقفة الى حركة (العدسة) الزاخرة بالمعانى والدلالات .

وعلى هذا النحو ، نصل الى الفارق بين رؤية (البنائية) فى اطارها اللازمى وبين الرؤية (التاريخية) فى دأبها على التقاط الاحداث واستيعابها فى اطار زمنى يعى ما قبله ويعمل لما بعده .

وليس معنى ذلك أننا نقتصر على (البنائية) في
تصورها الرياضى أو نقرب من (الماركسية) في تطورها
الزمنى . ففى رأينا ان البنائين استفادوا كثيرا من المفاهيم
الماركسية الاولى وشراحها (من المعروف أن البنائين الاول
رضعوا الماركسية مع ما رضعوه من أمهاتهم ، كما يقول
« ريمون آرون » . فهى جزء لا ينفصل عن فكرهم ، ولذلك
فإن « التوسير وسارتر ولوفيفر وليفى شتراوس » كلهم
ادعى لنفسه حق ممارسة الديالكتيك الماركسى — وهو ما
أشارت اليه « أديت كيرزويل » فى كتابها : عصر البنيوية
الذى ترجمه أخيرا للعربية د . جابر عصفور .

ومن هنا ، سنتظلم محاولاتنا مقصورة على الامادة من
هذه الاجتهادات مجتمعة بأن تتعامل مع الظاهرة وتقبض
على دلالاتها بمنظور خاص ، لا يلتزم بالضرورة بالمناهج ،
بقدر ما يدخل معها فى علاقة نقدية بالمعنى الفلسفى .

ومما سبق ، سوف نحاول أن نعيد الهرم الى وضعه
الطبيعى مقلوبا من الرأس الى القاعدة ، وبدلا من أن نحدث
(نموذجا) معينا ، نهتم عنده بالوصف فحسب ، سنضيف
الى هذا محاولة سابقة تجتهد فى وضع هذا (النموذج) فى
اطار التتابع الزمنى وتطوره . . غير أن الترتيب الذى يمكن
أن يكشف لنا عن الابنية الداخلية وعلاقاتها فى السياق
العام يظل هنا ثابتا .

فلنخرج من اطار المنهج الى اطار الرؤية والتفسير .

ان العلاقة بين الشرق والغرب ، أو بين الجبرتي (كمثال لفكر الشرق) وبين صحف بونابرت في مصر حينئذ (كمثال لفكر الغرب) ، تظل هي العلاقة التي سنصل في اطارها الى مفاهيم مجردة ، وسوف تسبق هذه المرحلة مرحلة أخرى تمهد لها ، وتكشف في التتابع الزمني عن المؤثرات العامة التي أدت الى تحديد (خصائص) الظاهرة والكشف عنها اذا أمكن ، والافادة من هذا (القانون) المصغر الذي يمكن من خلاله كشف طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب فيها بعد ، وحتى الآن في اطار هذا الفهم .

وبشكل آخر ، سيتحدد اطار هذا البحث في خطين :

الاول : دراسة خصائص عصر الجبرتي ، ولامح الثقافتين : العربية والفرنسية ، لنخرج ، من ثم ، من التعميم الى التفصيل .

ثانيا : دراسة موقف الجبرتي الخاص من الفئات الدخيلة على مصر ، وهو ما سيصل بنا من جديد الى رصد بعض الدوافع التي كانت وراء تدوين الأثر الفكري سواء في الجانب الشرقي أو الغربي .

وسوف نقبض على عديد من خيوط شبكة التحولات من خلال هذين الأثرين :

* عجائب الآثار فى التراجم والاخبار : عبد الرحمن الجبرتى ، الجزء الثالث ، (وقد طبع بالقاهرة بدون تاريخ) .

* Courier de L'Egypte : وهى الصحيفة التى أنشأها نابليون بونابرت حين جاء الى القاهرة (١٧٩٨ — ١٨٠١) ، وقد طبعت بالازيكية بالقاهرة .

وسوف تتحدد الفترة الزمنية هنا بين عامى ١٧٩٨ — ١٨٠١ ميلادية على اعتبار انها الفترة التى تحدد من خلالها دائرة اللقاء الاول بين الشرق والغرب، على أن تمثل هذه الفترة مركز الدائرة للدائرة الارحب للعلاقات بين الشرق والغرب قبل هذا وبعده ، وخاصة الفترة التى تمتد بين عامى ١٧٦٠ — ١٨٤٠ لاعتبارات سيزيدها البحث ايضا كما سنرى .

وسوف نرى أن هذه الفترة ستقسم الى ثلاثة حروف ، تتوسط الفترة الاولى ١٧٩٨ — ١٨٠١ وهى الفترة (ب) التى تتوسط فترتين أخريين أطلق عليهما (أ) و (ج) .

ولا يمكن أن نتعرف على خصائص عصر الجبرتى دون تفهم العصر الذى سبقه على أساس ان مجموعة الخصائص والتغيرات التى حدثت فى هذا العصر — السابق — هى التى أدت الى بنية زمنية تالية .

وليس من شك أن دراسة هذه البنية الجديدة تصل بنا ، بالتبعية ، مع التغيرات الى تتابع يصل الى البنية الثالثة ، وهى العصر الذى يعقب فترة وجود بونابرت فى مصر .

وعلى هذا النحو ، فان تمثلبنى الزمنية الثلاث يمكن أن يسهل لنا دلالة التتابع وأهميته من منظور محايد .

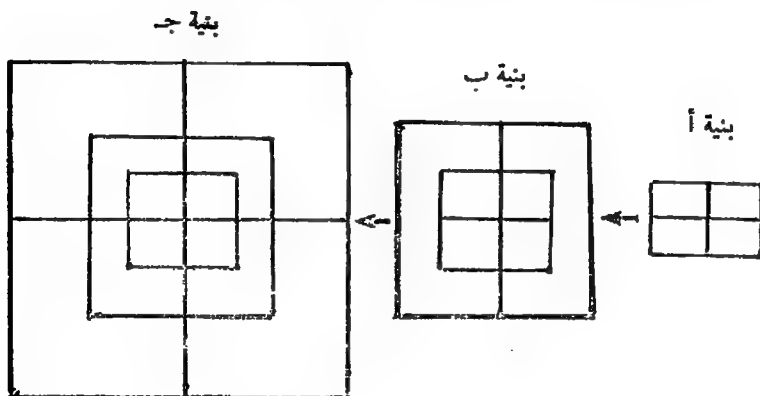
اننا يمكن أن نتمثلبنى العصور الثلاثة برموز ثلاثة هى : أ ، ب ، ج ، فنرى العصر السابق على عصر الجبرتى على أنه (أ) ، ثم عصر معاصرة الجبرتى لبونابرت على أنه (ب) والعصر التالى على أنه (ج) .

وهذا التصور يكشف لنا طبيعة (البنى) دائما فى تغيراتها الزمنية ، السابقة أو اللاحقة ، بما يوفر لنا امكانية التعرف على الخصائص أو العلائق المتغيرة من هذه البنية أو تلك ، بما يقرب بنا من تكشف طبيعة الخيوط المخبأة فى نسيج المستقبل .

وسوف نتمثل هذه البنى على النحو الآتى :

ان الرمز الذى سبق مجيء بونابرت الى مصر يختلط فيه كثير من التصورات التى تحول بعضها ، بغض النظر عن صدقها ، مع الوقت ، الى أفكار ثابتة يتفق عليها عدد كبير من كتاب التاريخ المصرى من المصريين والاجانب فى آن واحد .

فبينما ذهب البعض — وهم الأغلبية — الى أن هذه الحقبة هى حقبة تجمد وتدهور ، فان البعض الآخر ذهب الى أنها ، على العكس ، حقبة أطراد وتطور ، وكان يمكن أن تستمر لولا ما طرأ على الواقع المصرى من تغيير منذ جاء الفرنسيون الى مصر فى نهاية القرن الثامن عشر .



وهذا الفهم الخاطىء اختلط فيه الثقافة الاجتماعية بالتحويلات الاقتصادية ، فأسهم فيه كثير من الغربيين أنفسهم كى يتم تحديد هذه العلاقة وطبيعتها قبل فترة التدخل الاوروبى ثم بعده قصد رصد عمليات استيعاب المستحدث من عناصر الثقافة الاوروبية .

فلنرجى الدافع السسيولوجى للثقافة الغربية ،

ولنتوقف ، أكثر ، حول طبيعة الواقع السياسى والاقتصادى
حيثئذ .

فلنحاول ، الاجابة عن هذا السؤال :

ما هى طبيعة الفترة التى سبقت مجيء بونايرت
مصر ؟

الاجابة لابد وان تمضى فى اتجاهين .

فى اتجاه يرى البعض أن الفترة التى سبقت نابل
كان يشوبها التخلف مثل جاكوب لاندائو Job Landau
الذى راح يولع بحشد المعلومات دون تمثيلها خاصة
دراساته عن المسرح ، والرحالة ادوارد لين الذى
يسقط قصص (الف ليلة وليلة) على حياة المصريين بعد ر.
بونايرت بسنوات ، فضلا عن أن عددا كبيرا آخر
يستطع تفسر بعض الظواهر الفنية فى الشرق وت
بعضهم بالحس الخيالى دون الحس الوصفى من أمثال بـ
كالة Paul Kahle وياكوب Jacob وفوا

Volnne ومولياك Moliac وتتوالى الابد
الكثيرة بعد ذلك حتى نصل الى المؤرخ كروتشلى E.
Crouchley الذى صور مصر على أنها كانت مج
حطام : « فقد ضرب ريبها ، وتدهورت تجارتها ، وضع
صناعتها ، بل وبدأ عدد سكانها فى التناقص ، وقد :
المجتمع بحق فى حالة من الجمود وعدم الحركة » ،

كان هذا بالطبع يعود الى الفترة المملوكية التى لم تعرف الاستقرار السياسى والاجتماعى واقامة القانون والنظام .

هذا هو الاتجاه الاول الذى يرى أن الحقبة التى شهدت الحملة الفرنسية هى حقبة تدهور وانحسار ، أما الاتجاه الآخر ، فهو يذهب الى أن هذه الحقبة كانت فترة تطور وازدهار على العكس مما يذهب اليه الآخرون . وعلى رأس الاتجاه الاول كان د . لويس عوض فى كتابه : تاريخ الفكر المصرى الحديث ، متخذاً من أعمال ابن خلدون وابن اياس ثم الجبرتى مرجعاً له عن هذه الفترة فضلاً عن بعض المراجع الغربية . ثم أهم باحثى هذه الفترة على الإطلاق ، وهو ، بيتر جران الذى يقف على رأس هؤلاء ، حين قال : « ان ثمة تطوراً داخلياً كان نامياً فى مصر فيما بين عامى ١٧٦٠ — ١٨٤٠ نحو الرأسمالية التجارية ، غير انه قد أصابه بعض الاختلال من جراء الآثار المضادة التى ولدتها أنشطة التجار الارمن واليونانيين المقيمين آنذاك فى وادى النيل حتى كادت هجمة الحملة الفرنسية على مصر تقضى على ذلك التطور » .

والواقع ان دراسة الحقبة التى سبقت مجيء الفرنسيين الى مصر فى نهاية القرن الثامن عشر لا تضعنا فى حيرة كبيرة . . ففى حين كانت الروح المعنوية لاسيما على مستوى العلماء والمراكز الثقافية مرتفعة ، والعناصر الاقتصادية فيها تمثل فى التجار فى طريقها الى الارتقاء ،

فان البلاد كانت تعاني من سوء النظام الاستبدادي الذي شجع على سيادة الفكر المحافظ ، وقد ظهر هذا جليا في جهود لم يلق معارضة شديدة ، فرغم وجود تراكم آلية للبدع لم يكن ليخطأها مؤرخ هذه الفترة ، « غير أنها وفرت أدوات لتحكم السلطة الاستبدادية والعادات والتقاليد . واحد هذه المبادئ هو الاجتهاد ، وهو بمثابة طريقة لاكتشاف منهج حكم القرآن أو السنة على موقف معين » (أحمد عبد الرحيم مصطفى ، حركة التجديد الاسلامي ، معهد البحوث والدراسات العربية ص ١٣) . .

فاذا بنا امام التقليديين الذين يتجهون الى الحد من حق استعمال الاجتهاد لانه قد يؤدي الى شروخ تحريرية قد تقضى الى تغيير التعاليم والعادات ، ومن ثم ، فانه بينما بدأ أطراد الازدهار الفكري والاقتصادي من ناحية لدى العلماء ، بدأ غلبة العادات والتقاليد عند عامة الشعب من ناحية أخرى مثلما بدت الفرقة السياسية الداخلية ، وهو ما يشير في السياق الآخر الى ان الحقبة السابقة على الحملة الفرنسية لم تكن كلها جمودا ، اذ كان من الطبيعي أن يكمن نبض الحضارة الشرقية تحت رماد العزلة والعجز .

ولنتوقف هنا قليلا ، لنحاول تركيز عين العدسة اكثر على هذا العصر من خلال فئتين اثنتين :

(١) العلماء — المثقفين .

(ب) التجار — الأعيان .

على أن نضع في الاعتبار أن تطور الفئتين يسهم في تأكيد الروح القومية .

وتفصيل هذا اننا لا يمكن أن نقرأ أو نعود الى يوميات الجبرتي أو عديد من مخطوطات القرن الثامن عشر في دار الوثائق المصرية ، أو حتى ، الوثائق التي تقبع في اصابير الأزهر دون أن نصل الى حقيقة ناصعة ، هي ، أن علماء الدين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير وعلم غزير ومكانة رفيعة .

لقد كان الأزهر ، بشكل ما ، هو الجامعة التي تضم أكبر عدد من العلماء والمثقفين حينئذ ، والجزءان الاول والثاني من (عجائب الآثار) يزخران بدور علماء الدين الواعين ومواقفهم الايجابية من الحكام المماليك لصالح ابناء الشعب ، فبعد ان كان (القضاء) يعتمد على المماليك قبل كل شيء ، فان خلافت المماليك وانقسامهم على انفسهم ضخم أكثر من دور العلماء ، اذ وجد كل طرف منهم أنه في حاجة ماسة الى زعيم يستعين به على الآخر ، وكوسيط بينه وبين الشعب .

لقد بدا ان النوازع الدينية عند العلماء كانت عاصما للناس من ظلم المماليك ، وفي بعض الاحيان رد الظلم كلما زادت المظالم ، ومع انه يمكن أن نقف كثيرا عند طبيعة التحالف الذي كان يقوم بين العلماء والمماليك حينئذ ، فانه

يمكن أيضا الجزم بانهم — العلماء — كثيرا ما قاموا بدور الوسطاء بين الممالك وبين الشعب (انظر أحداث سنة ١٢٠٠ من الهجرة : عجائب الآثار ، على سبيل المثال) .
أو بين الممالك وبين أنفسهم أو بين الممالك وبين الوالى العثمانى مما يشير الى ضخامة دور هؤلاء العلماء مما ينتج عنه ادوار ايجابية لرد الظلم عن الناس وخاصة حين تتحدد مواقفهم فى حدود تطبيق المعاملات الاسلامية وبشكل نظرى .

وهذا لم يمنع وقوع بعض رجال الدين أسرى للخرافة والدجل ومغالاة بعض رجال الطرق الصوفية ، غير أن دور رجال الدين عامة ظل دائما موازيا لقدرتهم التى تمتعوا بها ، ونستطيع أن نرصد فى مخطوطة بعنوان (أخبار أهل القرن الثالث عشر) موجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ورمز (طلعت ١ ٢١٤٨ ، ص ٣٤) . . كيف أن محمد بك (ابو الذهب) — فى فترة مبكرة — لقى معارضة شديدة من الشيخ الدمنهورى شيخ الجامع الازهر حين رفض أن يكتب له تصديفا للذهاب الى عكا (للحرب) ، وحين كتب هذا الحاكم الى العلماء مستأذنا منهم . فان بعضهم (أجاب وبعضهم امتنع) ، بما يشير الى المكانة التى كان يتمتع بها العلماء .

وتؤكد المخطوطة نفسها بعد هذا كيف ان دور العلماء انتقل الى الخصومة واصلاح ذات البين بين الممالك أنفسهم .

ويسهب كتاب بيتر جران في تفضيل دور رجال
الازهر من العلماء حينئذ . . فبعد ان يستعرض النشاط
التجارى يعزو هذا الازدهار الى زيادة دور الازهر وزيادة
ارتباط علمائه بهذه القوة الاقتصادية والاجتماعية (القومية)
السامقة .

ويلاحظ هنا ان جران لا يكاد يصل الى دور العلماء
الاجابى حتى يربط بينه وبين فئة التجار المصريين ودورهم،
فقد كانت هذه الفئة آخذة فى التنامى والازدهار فى القرن
الثامن عشر خاصة ، أى قبل مجيء بونابرت .

ولاشك ان اجتهاد جران يصبح حقيقة مؤكدة حين
تتوقف عند ثلث القرن السابق لمجىء الحملة الفرنسية
حيث شهد نموا متسارعا لطبقة رأسمالية تجارية (مزدهرة)
قومية ووطنية ، ذات موقف وطنى معاد لسيطرة الاجانب
الجراكسة والترك والافرنج .

ويؤكد هذا ما يلاحظ من هذه العلاقة الوطيدة بين
الاقتصاد ورجال الدين متمثلة فى تجديد علم الحديث الذى
اقترن حينئذ بالنشاط الواسع للقطاع التجارى فى القرن
الثامن عشر وصحبه الى حد بعيد .

وبدهى هنا هذا الربط بين التحول الاقتصادى والجنور
الاسلامية التى كانت تعتمد على (التحول الاقتصادى —

الزراعى — الحرقى) فى مصر فى القرنين السابقين لىجىء
 الحملة الفرنسىة ، وعلى أساس ان (الفكر العلمانى
 الاسلامى) ، على حد قول جران ، والذى انتجه شيوخ
 الازهر ، لم يشرع فى التبلىور ، اللهم الا ، منذ منتصف هذا
 القرن — الثامن عشر — وهو الوقت الذى بدأ فيه العمل
 لاجهاض التحولات الكبرى فى المنطقة .

وىصبح من تحصيل حاصل ان نقول ان الفترة التى
 سبقت مجىء حملة الغرب ، انما شهدت ارهاصات التطور
 فى شتى الميادين مما تمثل فى تحالف الممالىك — الحكام مع
 التجار المصريين — ابناء العرب — كما كان يطلق عليهم —
 وشهدت كذلك تحولات اجتماعية مصرية خالصة حيث
 ازدهرت احوال التجار المصريين الذين (نافسوا الممالىك
 انفسهم) وتوازى مع هذا كله ، صعود جماعة (العلماء)
 فى تحالف وطنى قومى .

القسم الأول

الجبرتي وفترة بونايرت

لقد بدأ واضحا ، ان التطور المطرد في الاتجاه الايجابي
كان يمكن أن يؤدي الى تطور طبيعي آخر لو سارت الامور
على النحو الطبيعي مما كان يحول بيننا وبين الصدام غير
المؤهل مع الغرب وما أعقبه من تفكك في آليات التطور
الذاتي في شتى الميادين .

ومهما يكن ، فانه بمجيء الحملة الفرنسية كان على
الجبرتي أن يعي طبيعة المرحلة الجديدة ومؤثراتها الطارئة،
ومن ثم ، فانه راح يدون في اليوم الاول من مجيء هذه
الحملة احساسه الداخلي بالخطر ، واستشرافه لمرحلة
جديدة ، تمضي بمصر والمنطقة العربية الى حيث لا يحمد
عقباه .

ان هذا كله بدأ واضحا في أحداث السنة (١٢١٣ هـ -
١٧٩٨) ، حيث يقول في أول الجزء الثالث من (عجائب
الآثار) :

« وهي أول سننى الملاحم العظيمة والحوادث
الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة

وتضاعف الشرور وتراصف الأمور وتوالى المحن واحتلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب وما كان ريك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (ص : ١) .

وهنا يكون لزاما علينا ان ندخل الى مساحة هذه البنية الجديدة .

فما هي ملامح هذه المرحلة الثالثة . . ؟

ان البنية التالية لم تكن منعزلة عن سابقتها قط ، ومن ثم ، فان التشابه هنا يكون موضع تكشف الاختلاف والتراكم وليس الرصد والمتابعة ، فمن الصعب فصل البنى عن بعضها ، بل ويمكن أن نضيف الى آثار البنية الثانية آثار البنية التالية — ج — مما يمكن معه أن نطلق على هذه الفترة الخطيرة من تاريخنا — كما أطلق عليها البعض — بأنها (مفترق الطرق) .

واذا كانت البنية (١) هي البنية الاولى التى احتوت على خصائص البنية الطبيعية ونسيجها الاصلى ، فان البنية (ب) شهدت التغيرات الكثيرة الطارئة والتي تمثلت فى آثار الحملة الفرنسية التى احتلت مصر قرابة ثلاث سنوات (١٧٩٨ — ١٨٠١) ، وما تبع هذا من جملة التغيرات الكثيرة التى قدر لها أن تحدث قبل أن يحاول

النظام العثماني العودة ثانية كي يجهز على بقايا محمد على في البنية (ج) التي وصلت بمصر في نهاية هذا (المفرق) الهام الى علامة جديدة في طريق العصر الحديث .

وهنا ، يمكن أن نرى في حملة بونابرت حدثا هاما في تاريخ مصر . . خاصة وان العلماء والاعيان تمتعوا ، سواء بسواء ، بنفس الدور القديم ، على الاقل في الظاهر . . وهنا ، يمكن أن نشهد الملامح الاولى في تبلور الروح القومية وتوثبها .

لقد ظل العلماء يتمتعون بهذه الاهمية ، وهو ما بدا كثيرا في عديد من مصادر هذه الفترة . . فكثيرا ما كان الجبرتي يذكر دور العلماء والمشايع اثناء هجوم الفرنسيين الاول على القاهرة ، فيقول حينئذ (فاشتد انزعاج الناس وركب ابراهيم بك الى ساحل بولاق وحضر الباشا والعلماء . .) ص ٦ ، وهو يردد في موضع آخر وفي أكثر من موضع نهوض (أكابر البلد من المشايخ) ويذكر دورهم في تنظيم علاقات التعامل بين (سارى عسكر — نابليون) حين تمكن الفرنسيون من التغلب على أهل البلد وبين أهل البلد من الشعب . بل ان كتاب (وصف مصر) الذى وضعه الفرنسيون أنفسهم يتحدث كثيرا عن دور العلماء (الازهر)، كما لم تتوقف صحف الحملة الفرنسية ومصادرهما عن ذكر دور رجال الدين المتعاملين مع الفرنسيين ، في انهم — أى العلماء — لم يترددوا في أن يتخذوا موقفا مناوئا

للهجوم على الفرنسيين ، فهم يعرفون ميعاد قيام ثورة القاهرة ، ومع ذلك ، فانهم لم يبلغوا الفرنسيين .

وهذه الرواية لم يذكرها الفرنسيون فقط ، وانما نكرها مصدر يكاد يكون محايدا هو (نيقولا الترك) (ص ٢٨ — ٢٩) .

والأكثر من هذا ، أن نابليون في منفاه — بسبانت هيلانة — حين راح يستعيد أحداث الحملة بمصر ، فلم يتردد عن الاعتراف بدور رجال الدين والعلماء ، فلم يغفل قط عن كسب رضاهم وتملقهم « كانوا شيوخا جديرين بالاحترام لفضلهم وعلمهم وراثتهم ، بل ومولدهم . وكانوا عند شروق كل شمس يأتونهم وعلماء الازهر الى قصره قبل الصلاة فيملا حرسهم ساحة ميدان الازبكية ، ويمتطون بفالهم المطهمة ومن حولهم أتباعهم وعدد غفير من العدائين المسلحين بالثوم فيحييهم الحرس الفرنسيون التحية العسكرية .. وفي القصر .. يستقبلون بالتجلة ، وتقدم لهم الشربات والقهوة . وبعد لحظة يقبل الجنرال فيجلس وسطهم على الاركة ، ويحاول كسب ثقتهم بالمناقشة في القرآن ، وبطلبه تفسير الآيات الهامة ، وبإبداء إعجابه العظيم بالرسول (صلح) حتى اذا غادروا القصر انصرفوا الى المساجد التي يجتمع فيها الناس ، فحدثهم بآمالهم ، وهدأوا من روع الأمة الكبيرة وعدائها للفرنسيين . كما يؤكد صاحب كتاب (بونايرت في مصر) ج . كرسترف

هروالد (ترجم الى العربية ونشر بالقاهرة ١٩١٧ ص ٢٥١
نقلا عن مراسلات بونابرت) .

اما الاعيان فلم تكن لتخلو مصادر هذه الفترة من ذكر دورهم وأهميتهم ، فـ « عجائب الآثار » ، على سبيل المثال ، تذكر دورهم هم والعلماء في مقاومة الحملة ، فالجبرتي حين يتحدث عن فترة الكفاح ضد قوى الاحتلال كان يذكر دورها معا ، كما كان يقرن كثيرا بين (الشيوخ والاعيان) وهو ما فعله معاصر آخر له وهو نيقولا الترك .

ومن أكثر الملاحظات أهمية في هذا الصدد ، ان مشروع الحملة بإنشاء ديوان في مصر ، جاء استمرارا لدور العلماء والاعيان في آن واحد ، فقد كان الديوان ينقسم الى قسمين :

— الديوان الخصوصى ، ويتكون من بعض كبار رجال الدين .

— الديوان العمومى ، ويتكون من كبار رجال الحرف والتجار .

وحين نعود الى بيتر جران نراه يعود بدوره الى رصد دور الفرنسيين المباشر ، أو غير المباشر — أثناء الحملة — فى اجهاض التطور الاقتصادى ، فقد كان هذا التطور قد بلغ درجة بعيدة من النضج ، اذ تؤكد وثائق هذه الفترة ان (أولاد العرب) ، التجار ، فى القاهرة والاسكندرية

ودمياط ورشيد كانوا يتحالفون مع الصيارفة من الاقباط المصريين ، لكى يحتفظوا بحقوقهم فى جنى ثورة بلادهم ، وتحالف الفرنسيين والتجار السوريين والمارونيين من ناحية أخرى .

ونستنتج من هذا كله ، ان دور الاعيان المصريين وصل الى درجة نافسوا معها الممالك ثم بدت فى القدرة على التأثير فى رموز السلطة العثمانية نفسها .

ومن البدهى ان نذكر ان دور أولئك التجار ظهر أول ما ظهر فى تعضيد قوة الازهر وعلماؤه ، ومن ثم ، زيادة ارتباط أولئك العلماء بهذه القوة الصاعدة فى تجسيد الروح القومية التى كانت تتهاى لتلعب دورا كبيرا فى بلادها .

وقد يكون من المفيد الآن أن نجاوز البنية الثانية — فترة اللقاء بين الشرق والغرب — الى البنية التالية لنسأل سؤالا واحدا :

الى أى مدى كان يمكن أن تتبلور الطبقة الجديدة من العلماء والاعيان لولا هذا الجزر السلبي بمجىء القوى الجديدة الفرنسيين ومحمد على ؟

ان الاجابة تقتضينا أن نجاوز البنية (١) والبنية (ب) لنصل منها الى البنية (ج) حتى نرى تأثير البنيتين السابقتين على البنية الاخيرة .

ورغم أن حدود البحث تقتضيها التوقف عند البنية الثانية لنرى من خلال المنهج النموذجي المقارن طبيعة هذه البنية . فان القفز الى البنية الثالثة والعود بسرعة الى فترة وجود الحملة — البنية الثانية — يتيح عرض الفرضية التي يعرضها البحث ويحاول البرهنة عليها .

ان ملاحظة جران في هذا الشأن لا يمكن تجاهلها قط ، فبمجرد أن جاء عصر محمد على ، ومارس (الوالى) الجديد سلطاته ، حتى تدهور علم الحديث وما صاحبه من علوم التاريخ والمنطق والأدب وفقه اللغة وما الى ذلك من العلوم التي تنتمى الى الفهم والعقل أكثر مما تنتمى الى التبرير والتعليل ، ومن ثم ، كان من الطبيعي أن يزيد الاهتمام فى البنيتين السابقتين بعلم الكلام الذى يستخدم عادة لتكريس الوضع القائم ، ووضع العقول فى أقفاص المحسودات المطلقة ، وهذا لا يمنع من الاهتمام بالعلوم التطبيقية ولكن فى اتجاه تكريس الدولة (عسكريا) لتحقيق أحلام الوالى العسكرية .

ومن هنا ، فنحن أمام ملاحظات جديدة يمكن على ضوءها ملاحظة أمر آخر ، يظهر فى ضياع دور العلماء ورجال الدين ، وتلاشى مكانة التجار والاعيان من المصريين الاصلاء .

وبمجرد انتهاء حكم محمد على أو تحطيم ملكه ، فان علم الحديث يعود من جديد الى دائرة الاهتمام لكن فى وقت

يكون فيه التأثير الغربى قد وصل الى درجة قصوى من درجات التأثير ، فاذا السياسة الاقتصادية والفكرية التى عمل لها الغرب ونفذها تبدأ بعلم الحديث ، فاذا بالاهتمام يعود من جديد الى علم الكلام ، وتظل الحلقة مفرغة كما هى .

وبعد أن كان التطور الاقتصادى سواء فى البنية الاولى ، والى حد ما فى البنية الثانية نابعاً من الروح القومية ومنجزاتها ، فقد أصبح التطور الاقتصادى الآن نابعاً من جديد من حاجة الغرب ومتطلباته .

وبعد أن كان التطور الفكرى والدينى نابعاً من البيئة المصرية والمراكز الاسلامية الاخرى فى الشرق — كدمشق واسطنبول — أصبح الآن تابعاً لثقافة الغرب وتوجهاته ومراكز الثقافة البعيدة فيه .

وعلى هذا النحو ، يمكن أن نصل الى بدهية أخيرة ، مؤداها، أن الحملة الفرنسية قد أجهضت التطور الاقتصادى والفكرى أو كانت مرحلة تمهيدية لهذا فدفعنا بالبلاد الى أحضان الغرب ، وأن كان يجب الاستدراك بالقول أن الحملة الفرنسية كانت مرحلة التخلخل — لا الإجهاض — وهى مرحلة أتمها الاستعمار الغربى بدأت من أواخر عصر محمد على حتى وصلت الى أقصاها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حين وضع الغرب يده على مصر ، ثم ليضع يده على بقية أقطار العالم العربى .

غير أن التغير في البنى السياسية والاجتماعية لم يكن لينفصل كثيرا عن التغير في البنى الثقافية أيضا ، ومن هنا ، فمن الضروري رصد بعض الملامح الثقافية في هذا الوقت سواء في الشرق أو في الغرب ، ليتسنى لنا ، من ثم ، تفهم درجة التباين ودلالته .

ويجب أن نفرق هنا بين اثنين : الثقافة والعادات .

الثقافة ممثلة في الغالب في علماء الدين – المثقفين –
والعادات في عامة الناس ممن مثلوا السواد الأعظم لسكان البلاد .

ورغم أنه لا يوجد تفريق كثير بين الثقافة وتقاليد الناس وعاداتهم ، فإننا هنا سنحتفظ بخيط رفيع بينهما لعمق الهوية التي يمكن أن تفصل بين الشرق والغرب حين نتحدث عن العادات وربما تضيق قليلا هذه الهوية حين نتحدث عن ثقافة (الشيوخ) وطقوسهم .

في الشرق لم يكن خافيا المدى الذي صعدت إليه الثقافة المصرية في عديد من جوانبها أو هبطت إليه فيما بعد .

فمن ناحية ، لم تكن في حاجة لكثير من الفطنة ، لنذكر أن العهد السابق لحملة بونابرت عرف مجديدين في مجال التراث الإسلامي ، وأن التيار النقدي العقلي الذي ولده

أمثال المعتزلة والاشاعرة والفلاسفة ظهر له مريدون دائما، كما كان يتدفق على الازهر ، لكانته ، العلماء من شتى انحاء العالم العربى (مثل الزبيدى) ، وقد بدا هذا التيار خاصة فى تطوير العلوم الدينية وعلوم اللغة والمعاجم وعلوم التاريخ — وان تشعبت المحاولات فى الطرق الصوفية ، او مجال الادب — اللذين ضعفا كثيرا فى فترة من الفترات . كما زادت المدارس العلمية فى القاهرة والمدن الرئيسية فضلا عن تعليم الابناء عند امام المسجد ، ويتحدث كتاب (وصف مصر) باستفاضة عن دورات العلم فى الازهر وانقسام المدرسين والطلاب الى حجرات كثيرة (أروقة) تنقسم بدورها الى فروع كثيرة فى العلوم والمعارف .

ويمكن أن نستفيض هنا فى ارتقاء الثقافة الى درجة لا يمكن أن نخطئها قط ، وان كان قد صاحبها هبوط آخر فى مجموعة التقاليد والعادات التى تتمثل فى الملابس والسلوك واللغة ، فضلا عن بعض السلبات التى أشار اليها المؤرخون مثل المسلمات الغيبية كالحسد والطلالع والسحر والمحافظة بشكل خاص ، وأيضا سلبية خاصة (النفاق) بين الفرد والحاكم لطبيعة العلاقة بين الفرد والحاكم فى البعد الزمنى ، وربما أيضا الانفعال أكثر من الفعل نتيجة للكبت والاستبداد الطويلين فى واد تهيم عليه القوة المركزية .. وما الى ذلك من السمات التى يمكن تتبعها فى (يوميات) الجبرتي .

وهذا التناقض في العادات خاصة هو الذى دفع بكثير من علماء الحملة الفرنسية وجنودها الى الاعتقاد بتخلف المصريين وتدنى حضارتهم المعاصرة لهم ، وكتاب الجبرتي (عجائب الآثار) خاصة يزخر بمثل هذه الخزعبلات التى تتوالى فى القرون السابقة لمجىء الحملة .

وباختصار ، فان الثقافة العربية بدت كجثة ممدده لا حراك فيها ، مظهرها يوحى بالموات وباطنها يوحى بالنبض الذى لم يتوقف تماما على امتداد حقبة طويلة من الزمان .

وفى المقابل ، بدت الثقافة الغربية فتية صاعدة . .

لقد كانت الحضارة الفرنسية تمتلك فى هذه الاثناء قدراً كبيراً من وسائل العلم والتكنولوجيا الحديثة ، كما تمتلك النهج العلمى فى البحث والتجريب فى وقت كانت الحضارة الاسلامية قد ورثت من قرون بعيدة ثقافة ثابتة تعزز بها وتوارث تقاليد شابها الكثير من الخرافات ، وان كانت المسافة بين المثقفين والعامه ، حينئذ ، تضيق وتتسع حسب الفترة التى يعيشونها .

لقد حملت الحملة الفرنسية عدداً كبيراً من عقول أوروبا وفنانيها وعلمائها : مفكرين ، وكيميائيين وفيزيائيين وفلكيين وجراحين وأثريين ومعماريين . ويسـتفاد من المصادر الرسمية للحملة أن لجنة العلوم والفنون وحدها فقط كانت مؤلفة من (١٦٧) شخصاً فقط .

ولنضرب مثلاً بسيطاً للقدر الفكرى الذى كان يحمله رجال الحملة فى جانب واحد ، وهو ، ان الجنرال كفاريللى كان يحمل قدراً كبيراً من الافكار الاشتراكية الحديثة الجريئة التى لم يكن ليتزدد معها من أن يصرح بها فى حضرة بوناپرت نفسه أثناء مناظرة زميل آخر له مدافعاً فيها عن فكره ضد القوانين الرأسالية السائدة (بوناپرت فى مصر ، المصدر السابق ص ٧٠ - ٧٦) .

وباختصار ، نفى الوقت الذى راح الغرب يخرج من ظلمات القرون الوسطى الى عصر النهضة وما استتبعه من الكشف الجغرافى والاصلاح الدينى ونمو الروح القومية والاهتمام بالادارة وتوحيد القوانين وشفق الطرق وتطور المواصلات ونشر التعليم وتطور النظريات السياسية وما الى ذلك . . فى هذا الوقت ، كان الشرق مازال أسيراً لحقبة بعيدة من الموروث الحضارى .

كانت أصول الحضارة فى الغرب تتطور فتستفيد بكل انجازات الحضارات الأخرى .

وأصول الحضارة العربية تكمن ثابتة وان تكن متوقدة وراء رماد السنين .

كانت الحضارة الغربية فى طور التطلع والازدهار .

والحضارة العربية فى طور التحن والانتظار .

وعلى هذا النحو ، يمكن أن نفسر حالة الانبهار التي بدت في سلوك بعض العلماء المصريين وغالبية العامة سواء ممن أتيحت لهم فرصة الالتحام بعلماء الحملة أم ممن آثروا مراقبة ما يحدث واستيعابه .

وكثيرا ما أفاض الجبرتي في شرح آلات العلماء الفرنسيين وأدواتهم الفلكية وماكينات التصوير ، وقدرات الرسم والتصميم ، كما وقف الكثيرون مبهورين أمام مظاهر صناعة الحكمة والطب الكيماوى وما الى ذلك وان لم يفقدوا روعهم كاملا .

لقد كانوا يدركون رغم الظواهر المدهشة حولهم ، أنهم ورثة حضارة أخرى لا تقل عن هذه الحضارة ، غير أن الحقيقة الناصعة كانت تشير دائما الى أن الحضارتين مختلفتان تماما .

غير أن هذا الاختلاف والتباين كان يحكمه هنا ناموس آخر ، هو ناموس التكوين الشرقى التقليدى عند مؤرخ مثل الجبرتي ، وسوف ينصب اهتمامنا الآن على موقف هذا المؤرخ المصرى ، شاهد العيان ، من الجماعات الدخيلة على مصر ، لنقترب — فيما بعد — من خلال أوراقه أمام طبيعة (اللحظة المتوقفة) فى البنية الثانية .



لنعد ، أكثر الى البنية (ب) ، وهى الفترة التى تقع بين عامى (١٧٩٨ — ١٨٠١) . الفترة التى يبدو فيها موقف الجبرتى واضحا أشد الوضوح من القوى الدخيلة على مصر .

كما رأينا ، فان هذه البنية (ب) دخلت اطارا ثانيا بفعل مؤثرات البنية (١) التى لحقتها وأضافت اليها ، كما دخلت ، فيما بعد ، اطارا ثالثا بفعل مؤثرات البنية السابقة عليها ، قبل أن تصل الى مؤثرات البنية التالية لها .

ولنتوقف أكثر ، عند الجبرتى فى البنية (ب) ، فهى التى تهمنا هنا فى هذه اللحظة (المتوقفة) زمنيا ، لنرى ، الى أى حد ، تحددت رؤية المؤرخ الشرقى السلفى فى الغالب بالنسبة الى القوى الخارجية التى كانت تمثل قوى شرقية احتلالية مثل المماليك والعثمانيين ، أو قوى غربية احتلالية مثل الفرنسيين .

ان موقف الجبرتى يرتبط ، الى حد كبير ، بنظرية السياسة عند المسلمين ، وقد تركزت كلها حول الحاكم ، وبالتحديد حول شخصية الحاكم .

ولعل من المفيد أن ننظر فى هذا الى كتاب الواردى (الاحكام السلطانية) . فهذا الكتاب ، « رغم أن مؤلفه ينتمى الى القرن الخامس الهجرى . والعنوان ذاته يدل على مركزية السلطان فى النظرية السياسية الاسلامية ،

التي يقال عنها أيضا بتعبير مساو تماما (نظرية الامامة) ، هذا الكتاب كله ، هو كتاب في السياسة أى في الحكم « ويدور حول الامامة وحول العمال الذين يختارهم الامام أعوانا له يسيرون أمور الأمة باسمه ، فكل ما يدور في الدولة انما يصدر عنه هو عن طريق نوابه . فالدولة هنا تستقى مبادئها السياسية من مركزية الامام بشخصه ، وهي مستقاه بدورها من الشريعة ، فالدولة هي شخص الحاكم .

وترتبط قضيتا الحرية والعدالة هنا بشخصية الحاكم أيضا ، حتى لو تحددت الحرية على أنها حالة ضد العبودية ، بمفهومها الذي ساد العالم الإسلامى فيما بعد وحتى جاءت الحملة الفرنسية ، كما أن العدالة — التي هي من شروط الوالى وواجباته — لا تعنى أكثر من التناصف ومنع التظالم ، أى ، أن الاتجاه الاخلاقى هو الهدف والغاية من العدالة كما كانت معروفة في هذا الوقت .

ان العصر العثمانى شهد انعكاسا عمليا لانكار المواردى ، فالسلطان هو كل شيء ، لم لا ، وهو ظل الله على الارض ، وقد كانت القيم السياسية ترتبط به في المقام الاول ، وقد كان من الممكن أن يقال أنه مع حضور الحملة الفرنسية على أرض العثمانيين بدأ الجيش العثمانى

يعرف طريقه الى الاصلاح السياسى والتغيير فى القيم التقليدية ، غير ان هذا تم فى مرحلة متأخرة قليلا ، لم يلحقها الجبرتى ، وبالتالي ، شيوخ عصره ، ومن ثم ، فان الفكر السياسى السائد فى هذا الوقت لم يكن ليجاوز الفكر السياسى التقليدى من العود الى الحاكم ، ورؤية العدالة والحرية من خلاله ، وهو فهم لم يكن ليصل الى معانى الدستورية ومفاهيم الحرية والعدالة الاجتماعية كما عرفها الغرب القدام بواسطة الفرنسيين الذين شهدوا الثورة الفرنسية بمفرداتها السياسية التى لاحظها رفاعة الطهطاوى ، أكثر ، فى فترة تالية .

اننا سنرى موقف الجبرتى يدور حول القيم السياسية التقليدية طيلة وجود الحملة الفرنسية على وجه التقريب ، حتى اذا ما كنا فى الفترة الاخيرة منها ، لمسنا تغييرا ما فى بعض المفاهيم الاسلامية للقيم السياسية ، لكنه تغير لم يستطع الجبرتى أن يشهد فيه تحولا ملموسا ويسجله من خلال يومياته .

لقد كان مبعث التناقض بين يوميات الجبرتى وصحيفة بونابرت يعود الى التغيرات ، الذى يؤكد بروز (الهوية) واختلافها .

لقد ارتبط الشرق هنا كما ارتبط الغرب هناك بمجموعة من الوشائج التى ميزت كل جانب فيه عن الجانب الآخر .

وسوف نرى من خلال التقليد والعادات ، خاصة ،
موقف الجبرتي .

أما عن التقليد ، وبالتبعية الانطواء والحرص .. فان
تفسير هذا يعود الى هذه (الهوية) الشرقية التى تنتمى
الى الدين كما تنتمى الى اللغة وبالمثل تنتمى الى جملة
العادات التى تتباين بين تقاليد اجتماعية وثقافية .

فمن الملاحظ أن موقف الجبرتي المتأرجح بين الاعجاب
بالغرب والمرارة منه ونقده فى آن واحد كان يخفى فلسفة
الفكر الشرقى فى الفترة التى قدر له فيها أن يلتقى بالفكر
الأخر ، فلا تبقى مندوحة من الصدام بين حضارتين — لا
أرداتين فحسب — ردود الافعال السريعة ، والتى تطوى
أيضا طبقات بعيدة الغور فى الوجدان .

لقد بدا هذا الموقف خاصة فى تأييد العلماء فى وقت
كان يظهر فيه العداء من قوى الاحتلال الغربى ، وهو ما
يمكن أن نلاحظه بجلاء ضمن جزئية (مظهر التقديس) ،
اذ راح يتحدث عن التقليد الذى يرتدى زى الدين ، يؤثر
الاشادة بالدولة الاسلامية — العثمانية — ليس هذا للحط
من قدر الممالك ثم الهجوم العنيف على الفرنسيين واطهار
الفرج بزوالهم .

اننا نرى فى هذا الكتاب — مظهر التقديس — وفى
اغلبه ، هجوما حادا على الفرنسيين الذى ساهم هنا

(الكفار) و (كفرة الفرنسيين) و (دولة الكفر) و (عصابة الكفار) .. الى غير ذلك من تعبيرات تشير الى اثار التبعية للعثمانيين ، الذين هم — حينئذ — الممثلون للدين الاسلامى ..

وإذا تفاضينا عن الميل السياسى الظاهر للعثمانيين فى هذا الكتاب استطعنا أن نستنتج الدافع وراء الموقف الخاص به فيما يتمثل فى رؤية الفرنسيين على أنهم قوى غازية يحتلون بلاده ، فضلا عن تطريز لغة البديع والزخرفة لكتاباته مما تشى بحقبة بعيدة طويلة عاشتها مصر بمعزل عن العالم الخارجى .

وفى جميع الحالات ، لم يكن هذا الموقف ليبرا ، قط ، من سمة (التقليد) التى كانت وقفا على عدد كبير من شيوخ هذا الزمان ومن بينهم الجبرتى .

على أنه ما كاد ينتهى من هذا الكتاب الذى تم تأليفه فيما يبدو ، من الصدر الأعظم ، وهو الرمز العثمانى للامام / الحاكم .. حتى بدأ فى تسجيل الجزء الثالث من كتابه الآخر : « عجائب الآثار » فى نفس الفترة التى شهدت غزو الفرنسيين وتغلغلهم فى شتى مناحى الحياة المصرية ، فأضاف الى مظائر اللوم للفرنسيين فى الكتاب الاول اللوم والاعجاب بهم معا فى الكتاب الآخر ، اذ يلحظ أنه فى الوقت الذى كان يهاجم فيه الفرنسيين فى منشور نابليون الى

المصريين ، على سبيل المثال ، فانه فى الكتاب التالى راج يحذف هذا ، ولا يلبث مع تتابع اليوميات والسنوات فى « العجائب » ان بدأ اعجابه الخالص بمنجزات الفرنسيين الحضارية فى مصر من مثل تنظيم الديوان وأيضا نظام المحاكمة الذى اتبع مع قاتل كبير (سليمان الحلبي) وما الى ذلك .

والاتجاه العقيدى ، خاصة ، يصبغ موقف الجبرتى فى وقت لم تكن الثقافة الغربية قد تسلمت بعد فى وجدانه ، وهو سر التراجع الدائم فى موقفه من الفرنسيين .

وتفصيل هذا أنه فى الوقت الذى يتحدث فيه عن احتفال الفرنسيين بأحد أعيادهم ، فانه يذكر قيام الجمهورية ولا يلبث أن يستنكر قتل الفرنسيين للكهم وهو ما يفهم من لهجة الجبرتى فى أكثر من موضع « ذلك اليوم كان ابتداء قيام الجمهور ببلادهم فجعلوا ذلك اليوم عيدا وتاريخا » (ج ٣ ص ١٧) ، وفى موضع آخر يشير الى المظاهر الكثيرة احتفاء بهذا العيد الذى لا يعرفه الشرقيون مشيرا الى اقامة العسكر من الفرنسيين بأبواب الحراسة تحت أحد الاعمدة التى تدل على هذا العيد (لأنه شعارهم واثارة الى قيام دولتهم فى زعمهم) (ص ١٨) . غير أن الاستنكار يصل الى أقصاه فى كتابه مظهر التقديس ، اذ يبدو استنكاره لقتل الفرنسيين سلطانهم ، فيقول « وسبب هذا العيد أنهم لما قتلوا سلطانهم وظهرت بدعتهم التى ابتكروها وخرجوا بها

عن الطرائق والمثل جعلوا ذلك اليوم عيداً وتاريخاً «
(مظهر التقديس ص ٦٠) .

ويلاحظ د . صلاح العقاد في بحثه (الجبرتي والفرنسي) بندوة الجمعية التاريخية أن الجبرتي حين يتعرض لبعض الإجراءات الادارية والقضائية والتجارية التي اتخذها الفرنسيون ، فإنه يقف منها موقفاً عدائياً لأنه « بحكم تكوينه الثقافي وانتمائه الاجتماعي الى طبقة الملتزمين كان يبغي تدخل الادارة في حياة الناس اليومية علماً والاقتصادية بصفة خاصة ، وهذا ما يجعله معادياً لآلية ادارة عصرية » .

والواقع أن هذا الموقف يعود الى تكوينه الشرقي الذي ينتمى لعادات مغايرة تماماً لعادات الجهة الاخرى التي تحاول اتخاذ اجراءات لا تتفق بالضرورة مع الطابع الخاص للشرق والعقيدة ، بدليل أن هذا الموقف اقترب فيه كثير! من موقف آخر بعد ذلك بقليل حين عارض موقف محمد علي واجراءاته التي كانت تعود الى السميت الغربي وتطبيقه في بيئة شرقية ، وهو موقف عدد كبير من شيوخ زمانه ومثليه .

على أن الموقف المعادي من قوى الاحتلال الفرنسي لم يميز عند الجبرتي — وشيوخ عصره — على وتيرة واحدة، فمن الملاحظ أن التآرجح بين الاعجاب بالحضارة الآتية

والتمرد عليها ظهر بوضوح بعد مضي فترة من الوقت عاين فيها الاهالى حقيقة الفرنسيين ، بما يشير الى ان مشايخ الازهر أنفسهم أصبحوا أكثر تقبلا للاجراءات الفرنسية في فترة تالية ، وعلى سبيل المثال ، فانه حين طلب أعضاء الديوان تخصيص سجل للوفيات اقترحوا اضافة سجل للمواليد والايجار أيضا ، لأن ذلك يساعد على ضبط الموارد والعدة للمطلقات ، بما يتمشى مع عادة البلاد وتقاليدها التى تأبى ترك النساء الارامل بدون زواج جديد .

وقد راح فى هذا كله يبدى اعجابا لا حد له فى كثير من (اليوميات) الاخيرة خاصة بنظم الفرنسيين ومعاملاتهم سواء ما تمثل فى ابداء اعجابه بنظام الاطلاع أو بالتجارب العلمية التى أجريت أماله ، كما أبدى ارتياحه لصداقة رفيقه حسن العطار للفرنسيين والذهاب الى معاملهم ، كما لم يستطع أن يخفى دهشته من موقف قوات الاحتلال التى كانت تدفع الثمن نقدا للاهالى لما يقدم لها من خدمات أو بضائع ، ويعجب أيضا لاتفاق الفرنسيين بسخاء على وسائل التسلية .

وقبل أن نقف على صور الاعجاب يجدر بنا أن نلقى نظرة سريعة على بعض صور المرارة والاحباط فى رؤيته لتصرفات الفرنسيين ومواقفهم .. فمن أهم الصور السلبية التى استتبعته نقده :

— « ان امرأة جاءت تشتري سمنا من رجل فقال لها لم يكن عندى سمن فكررت عليه حتى حنق منها فقالت له كنت تدخره حتى تبيعه على العثماني تريد بذلك السخرية فقال لها نعم رغما عن أنفك وأنف الفرنسيين فنقل عنه مقالته غلام كان معها حتى انهوه الى قائمقام فأحضره وحبسه ويقول أبوه أخاف أن يقتلوه فقال الوكيل لا لا يقتل بمجرد هذا القول وكن مطمئنا فان فرنساوية لا يظلمون كل هذا الظلم فلما كان في اليوم التالي قتل ذلك الرجل ومعه أربعة لا يدري ذنبهم وذهبوا كيوم مضى » (ج ٣ ص ١٣٨) .

— « تبرج النساء وخروج غالبيتهن عن الحشمة والحياء وهو أنه لما حضر الفرنسيين الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير و .. » (١٦١) .

— « وأما الجوارى السود فانهن لما علمن رغبة القوم في مطلق الأنثى ذهبن اليهم أفواجا وفرادى وأزواجا فنطن الحيطان وتسلقن اليهم من الطبقات ودلوهم على مخبات أسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك .. » (١٦٢) .

غير أن أهم الايجابيات التي غلبت على الصورة ، يرتبط ، كما أسلفنا ، بنظرة الخاصة لافعال الفرنسيين

من خلال مفهومه الشرقى الخاص ، ومن أهم هذه
الاجابيات :

— « .. وردموا في طريقهم قطعة من خليج بركة الرطل'
وقطعوا اشجار بستان كاتب البهار .. (و) .. وقيدوا
بذلك أنفارا منهم يتعهدون تلك الطرق ويسلحون ما يخرج
منها عن قالب الاعتدال بكثرة الدوس وحوافر الخيول
والبغال والحمير وفعلوا هذا الشغل الكبير والشغل العظيم
في اقرب زمن ولم يسخروا واحدا في العمل بل كانوا يعطون
الرجال زيادة عن أجرتهم المعتادة ويصرفونهم من بعد
الظهرة ويستعينون في الاشغال وسرعة العمل بالآلات
القريبة المأخذ السهلة التناول المساعدة في العمل .. »
(٣٣) .

— « قتلوا ثلاثة أنفار من الفرنسيس وبنفقوا عليهم
بالرصاص بالميدان تحت القلعة قيل انهم بن المتسلقين على
الدور » (٣٩) .

— « أرسل سارى عسكر يسأل المشايخ عن الذين
يدورون في الاسواق ويكشفون عوراتهم ويصيحون
ويصرخون ويدعون الولاية وتعتقدهم العامة ولا يصلون
صلاة المسلمين ولا يصومون هذا جائز عندكم فى دينكم ، أو
هو محرم فأجابوه بأن ذلك حرام ومخالف لديننا وشرعنا
وسنتنا فشكرهم على ذلك وأمر الحكام بمنعهم والقبض على

من يروونه كذلك فان كان مجنوننا ريط بالمرستان او غير
مجنون فاما ان يرجع عن حالته او يخرج من البلد .. «
(١٤١) .

ولم يكن هذا مبعث دهشة الجبرتى وحده ، اذ ان
العادات « الغربية » كانت من أكثر الاشياء التى راح
يسجلها لما تحتويه من تناقض بين الثقافتين ولما توحى به
من أمور لم يفهمها كثيرا الشيخ الشرقى وان كنا نلمح فى
دلالة ذكرها ميلا لم يصرح به من مثل « ضبط واحصاء من
يموت ومن يولد من المسلمين » — ص ١٤٣ — و « تحرير
دفتر الزواج » و « نظام غير قابل للتغيير فى ضبط الاملاك
والتميز الكامل عمن ولد ومات من السكان » — ١٤٤ —
وما الى ذلك من أمثال التطعيم والدفن باذن وتبخير البيوت
ونشر الملابس فترة الطاعون ، وهو ما كان يحمل استنكارا
من جهة الناس لعدم فهمها لها او تفسيرها الصحيح .

وعلى هذا النحو ، ففى المرحلة الاولى بدأ لومه
للفرنسيين بشكل واضح ، وفى المرحلة الثانية تذبذب بين
الاعجاب واللوم ، أما المرحلة الثالثة ، وبعد أن غادر
الفرنسيون مصر فان موقفه منهم اقتصر على الاعجاب حين
توفر له أن يعقد المقارنة مرة بينهم وبين فوضى العثمانيين
والماليك او بينهم وبين أطماع الانجليز وتربصهم بالبلاد .

ان الذى يتابعبنى الزمنية حتى يصل الى البنية

الثالثة — ج — يتأكد له أن الجبرتى عاد ، بعد لوم الفرنسيين ومعاينته لنظمهم وعاداتهم الى الاعجاب بهم .

ومما سبق ، يتأكد لدينا أن التأرجح انتهى من وجهة نظر الشيخ الجبرتى الى ايثار حضارة الفرنسيين لا الانجليز ، وهو ايثار فى دلالة يعنى ايثارا للقيم الاسلامية التى وجد بعضها فى مواقف الفرنسيين ليس فى جنسهم أو دينهم بالضرورة .

ولهذا ، فان موقفه بين السلب والابجاب لم يكن كما زعم البعض يعود الى انبهاره بهذه الحضارة أو ابتعاده عن تلك ، بقدر ما يعود الى طبيعة التركيب الشرقى التى اذا أضفنا اليها وعيه وتفتح . . انتهينا الى خصائص هذا الموقف من القوى الغربية .

ونصل الى الجزء الآخر من السؤال حول موقف الجبرتى من بقية القوى الاخرى الدخيلة على البلاد : العثمانيين والماليك ؟

وهنا ، يلاحظ ، أن الجبرتى ، كثيرا ما انتقد الموقف العثمانى والملوكى الذى قصده به الدفاع عن ثغور الاسلام ، وهذه الرؤية خاضعة لطبيعة الرؤية السياسية الخاصة به .

ان درجات غضب الجبرتى من هذه القوى أو رضاه عنها يرتبط بمفهومه الخاص حسب الموقف الذى عاينه

سواء في البنية (ب) أو البنيتين السابقة والتالية لها . .
 فبعد نزول قوى الفرنسيين واجتماع العلماء وأمرأ الممالك
 ليتداولوا في الأمر ، فان الجبرتي يسجل غضب العلماء
 من اهمال الدفاع عن البلاد وحمايتهم من الغزو الفرنسى
 عقب سماعهم بنزول الحملة بالاسكندرية ، وذلك عندما
 علق على الاجتماع الذى عقد بقصر العينى بالقاهرة ،
 ودارت فيه مناقشة حامية بين العلماء وأمرأ الممالك ،
 فيقول فى مظهر التقديس « فركب ابراهيم بك الى قصر
 العينى وحضر عنده مراد بك والأمراء والقاضى والمشايخ
 وتكلموا فى شأن ذلك ، فقال بعض المشايخ كل هذا من
 تغافل أمر الثغور واهمال الأمور حتى تمكن العدو ومك
 ثغر الاسلام ، فقال مراد بك وايش نعمل واذا قصدنا
 تعمير ذلك وتحصينه تقولوا مرادهم العصيان على السلطان
 فهذا هو المانع لنا من ذلك » .

ولم يلبث الجبرتي أن علق على هذا بقوله :
 « أوهى من بيت العنكبوت لأن الثغر من أيام على
 بيك لم يلتفتوا له جملة كاملة بل اخذوا ما كان
 به من آلات القتال والمدافع ومنعوا عنه المرتبات التى كانت
 للمرابطين والعسكر المتقيدين واكلوا علوفاتهم وقطعوا
 عوايدهم ولم يبق به شيء من آلات الحرب الا بعض مدافع
 مكسرين لا تنفع ولا تدفع حتى أنهم احتاجوا مرة لضرب
 مدفع العيد بارود غلم يجدوا التعميرة بل اشتروها من
 عند العطار بعد أن كانت اسكندرية وابراجها فى غاية

العمارة والتحصين وحولها السور المتقن الذى اعتنت به
الاولايل وبه ثلثمائة وستين برجاً على عدد أيام السنة » .

وعندما صدرت توصية من المجتمعين فى قصر العينى
بكتابة عرض حال الى الحملة العثمانية بخبر الحملة
وارساله اليها ، فان الجبرتى راح يعلق على هذا بأسلوب
لاذع ، نجده فى مظهر التقديس مطولا بعض الشيء :
« ظنوا أن الموجه أو المريض الملسوع يستمر سحاله حتى
يأتيه الترياق من العراق » (مظهر التقديس) . ص ١ —
٢ ، بينهما نجده فى (عجائب الآثار) مركزاً دالاً حين
راح يردد معلقاً على رسالة المجلس سآخراً « ليأتيه
الترياق من العراق » (عجائب الآثار ص ٣) .

وآثار الجبرتى بعد ذلك لا تتوقف عن توجيه الانتقاد
للمماليك ، فهو يؤكد مرة أن الشعب تنبأ بهزيمة مراد بك
عند خروجه للالاقاة الفرنسيين مستطرداً : « ثم أنهم
اتفقوا على خروج عساكر وصارى عسكرهم مراد بك ،
فتحدث الناس بأن مراد بك لم يتوجه الى جهة ويحصل
لها بالنصر » وبعد هزيمة مراد بك يضيف : « .. فلما
سأين ذلك مراد بك ولى منهزماً وترك أثقاله وجملته من
المدافع وتبعه عساكره وكان فى عدة وافرة (مظهر التقديس
٢ ، ٩) ، أما فى الكتاب الآخر ، فانه لاحظ أن المماليك :
« صاروا يصادرون الناس ويأخذون أغلب ما يحتاجون اليه
بدون ثمن » ، وبعد أن هزم مراد بك « ولى منهزماً وترك

الانكاف والمدافع وتبغعه عساكره » ، كما يسهب في خوف المالك وأمرائهم الذى دفعهم الى النهب ونقل أمتعتهم (عجائب الآثار ٢ ، ٦) .

وهذه الحال التى عرف بها المالك ليست في فترة مواجهتهم للفرنسيين وحسب ، بل تمتد الى الوراء ، الفترة التى سبقت مجيء الحملة الفرنسية ، ويمكن بالعود الى الأجزاء الأولى من (عجائب الآثار) أن نرى استعراضا طويلا لمساوىء المالك وظلمهم الذى يتمثل في المنهوبات وقطع الطرق على المسافرين وتخريب المراكب في النهر ما يزيد تعميق موقف الجبرتي منهم .

والمدقق في مصادر الجبرتي يتأكد له أن موقفه انما كان موقفا عدائيا بسبب ظلمهم وافتقارهم لقيم العدالة ، وبعدهم عن تفهم دور الحاكم ورسالته .

غير أننا يمكن أن نجد في مصادر الجبرتي ، أيضا ، موقفا آخر من المالك ، ينبثق من طبيعة حكمهم في الفترة التى حاولوا فيها أن يلتمسوا العدالة — في أول حكمهم — ويتعدوا عن الظلم ويدفعوا الى العمران ، وهذا لم ينكره قط ، فكثيرا ما أشاد بفضلهم ، فهو يذكر في هذا عن المالك : « لقد كان لهم سنن وطرائق في مكارم الاخلاق والاحسان للخاص والعام ويتردد على منازلهم العلماء والفضلاء ومجالسهم مشحونة بكتب العلم النفيسة للاعارة

والتعبير وانتفاع الطلبة ولا يكتبون عليها وقفية ولا يدخلونها في موارثهم ويرغبون فيها ويشترونها بأعلى ثمن ويضعونها على الرفوف والخزائن والخزائن وفي مجالسهم جميعا ، فكل من دخل بيتهم من أهل العلم الى أى مكان بقصد الاعارة والمراجعة وجد بغيته ومطلوبه في أى علم من العلوم ولو لم يكن الطالب معروفا ولا يمنعون من يأخذ الكتاب بتمامه فان رده الى مكانه رده وان لم يرده واختص به أو باعه لا يسأل عنه وربما بيع الكتاب عليهم واشتروه مرارا ويعتذرون عن الجانى بضرورة الاحتياج « كما سجل في الجزء الثانى من مجلده (عجائب الآثار ص ٢١٦) .

وهناك فرق كبير بين هؤلاء الممالك من ينتمون في الغالب الى القرون السابقة على القرن الثامن عشر ، وأولئك الممالك من ينتمون الى القرن الثامن عشر وخاصة في نهايته كما عرفنا في موقفهم من جنود الحملة الفرنسية .

وعلى هذا النحو ، فان موقف الجبرتي من القوى الدخيلة على مصر سواء ما تمثل منها في الفرنسيين أو الممالك ، كان ينتمى الى موقفه من القيم السياسية بمفهومها الاسلامى خلال الفترة التى سبقت مجيء الغزو الغربى الى الشرق في نهاية القرن الثامن عشر .

هذا الموقف الذى كان يرتدى زى الدين ويتذرع أحيانا بالسياسة أو المصلحة هو الطابع الغالب عليه ، وهو

الطابع التقليدي ، اذ بدا هذا الطابع غالبا في الفترة الاولى من البنية (ب) ، ومن ثم ، فانه في نهاية هذه الفترة بدا موقفه في التحول رويدا رويدا .

غير أنه في جميع الحالات ، كان ينطلق من عالم خاص به وبغيره من شيوخ عصره .



وهنا نكون قد وصلنا الى تصور تحليلي نستنبطه من الاثرين (عجائب الآثار — كوريه بونابرت) . . دون أن نعزل أيا منها عن السياق التاريخي أو الجغرافي أو نصحي بالدلالات من أجل التصور التجريبي .

وهنا ، نتهيا لفهم الظاهرة بالقبض على (نظام) مصغر داخلي يمكن به فهم القانون العام للعملية التاريخية وأحكامها .

وعلى هذا النحو ، فان وصولنا الآن الى (نموذج) معين يكون ضرورة للمرور على بنى زمنية سابقة وتالية تعمل على وضعه في سياقه الطبيعي من الحركة الزمنية .

وهذا النموذج يحدد في البنية (ب) من خلال وضع الاثرين — يوميات الجبرتي وصحف نابليون — جنبا الى جنب ، وبعد أن كانت المقارنة التحليلية تتم بين البنى — أفقيا — ، فانها هنا ستتم في بنية واحدة — رأسيا —

ليتسنى لنا ، من ثم ، فهم العلاقة بين الاختلاف أكثر من الائتلاف والتغاير أكثر من التمايز ، كما يؤكد الاهتمام الذى سوف ينصب على النصوص أن ذلك سيتم فى إطار التداعى الزمنى (الثابت) كما هى الحال فى المادة (الخام) التى بين أيدينا .

وسوف نرتب مفردات (النموذج) على النحو التالى :

- (أ) الاحتفال بوفاء النيل .
 - (ب) الاحتفال بالمولد النبوى .
 - (ج) تقليد أمير الحج .
 - (د) خطاب شريف مكة .
 - (هـ) اجتماع أعضاء الديوان العام .
 - (و) ثورة القاهرة الاولى .
- فلنتمهل أكثر عند هذه النماذج ودلالاتها .

الاحتفال بوفاء النيل :

كوربيه دى ايجيبت ، الطبعة الأصلية ، ص ١ ، رقم ١ ، فى ١٢ فركتيدور — السنة السادسة للجمهورية :

القاهرة : وصف الاحتفال بعيد النيل — أول فريكتيدور من السنة السادسة للجمهورية (١٢١٣ هـ) .

« في الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم توجه القائد العام وبصحبه جميع الجنرالات من هيئة أركان حرب الجيش ، والكخيا والباشا وأعضاء مجلس الملا وأغا حرس الباشا الى مكان مقياس النيل حيث احتشدت جماهير غفيرة على ضفافه وشفة القناة — المراد الخليج المصرى — ، وكانت المراكب حاملة الاعلام والزينات ، وقد اصطف بعض جنود الحامية بأسلحتهم ، مما ائتلف منه مشهد جميل مقترامى الاطراف . ولما وصل موكب القائد العام الى مكان الاحتفال أطلقت المدافع عدة طلقات للتحية وعزفت الموسيقى الفرنسية والعربية بعض المقطوعات انشاء العمل في قطع حاجز المياه . وما أن تم قطعه حتى تدفق الماء الى القناة وانساب منها بغزارة الى الريف حول القاهرة لاختصاب أرضه .

وقد نثر الجنرال القائد العام آلافا من القطع النقدية على الجماهير ، كمالقى قطعا أخرى ذهبية على موكب مر به . ثم خلع على الملا عباءة سوداء كما خلع على نقيب الاشراف عباءة بيضاء ، ووزع ٢٨ قفطانا على الضباط . وبعدئذ عاد الموكب الى ميدان الازبكية يتبعه جمهور ضخم ينشد أناشيد المديح في النبی وفي الثناء على الجيش الفرنسى ، ويلعن البهوات (البكوات) لمظالمهم وطغيانهم ، ويهتف بأن جنود فرنسا جاءت لتخليصهم برحمة الرحمن من الشقاء وقد انتصرت . وفاض النيل فيضاننا لم تشهد البلاد

أفضل منه منذ قرن من الزمان . وهذه نعمة من نعم الله .

وفى يوميات الجبرتي (عجائب الآثار ٠٠) ج ٣ ص ١٤ ، ١٥ جاء :

واستهل شهر ربيع الاول بيوم الاثنين سنة ١٢١٣ هـ

« (وفى يوم الجمعة خامسه) الموافق الثالث عشر مسرى القبطى كان وفاء النيل المبارك فأمر صارى عسكر بالاستعداد وتزيين العقبة كالعادة وكذلك زينوا عدة مراكب وغلايين ونادوا على الناس بالخروج الى النزهة فى النيل والمقياس والروضة على عانتهم وأرسل صارى عسكر أوراقا لكتخدا الباشا والقاضى وأرباب الديوان وأصحاب المشورة والمتولين للمناصب وغيرهم بالحضور فى صاحبها وركب صحبتهم بموكبه وزينته وعساكره وطبوله وزموره الى قصر قنطرة السد وكسر الجسر بحضرتهم وعملوا شنك مدافع ونقوطة حتى جرى الماء فى الخليج وركب وهم صحبتته حتى رجع الى داره وأما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتنزه فى المراكب على العادة سوى النصارى والشوام والقبط والاروام والانرج البلديين ونسبائهم وقليل من الناس البطالين حضروا فى صباحها » .

وهنا ، نجد عددا من الملاحظات تؤكد هذا التغير

الحاد بين حضارتين ، وهى ملاحظات لا تفوت القارئ
المدقق ، لعل من أهمها .

— يقول الجبرتي (وفى يوم الجمعة خامسه) . فهو
يتكلم بأسلوب العصر الذى يحيا فيه ولا يهيمه ذلك الانضباط
الذى تتصف به الروح العربية والتي تتمثل فى قول المنشور
(فى الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم) . وفى هذا
دلالة كافية لتبين — فضلا عن النظام — أهمية الوقت
وطبيعته لدى كل من الطرفين ، وما يتبعه ، من تعبير
المفارقة بين حضارتين لكل منهما عالمه .

— يقول الجبرتي (الموافق الثالث عشر مسرى
القبلى) ذلك ، لانه يتكلم عن وفاء النيل وهذا يتعلق
بأوقات الزراعة ، ومما يؤكد خلاف العالمين واختلافهما أن
الجبرتي يتعامل زمنيا بشكل مختلف عن غيره .

— ان الجبرتي يكتب شهرين (عربى — قبطى) بينما
المنشور الفرنسى يكتب بتاريخ (الجمهورية) الخاص
بالفرنسيين وظروفهم الخاصة ، فى وقت يكتب فيه العالم
بتاريخ (ميلادى — رومى) ، بينما يكتب العثمانيون
بالتاريخ (الهجرى — المالى) .

— ويؤكد هذا أنه بينما يقول الجبرتي فى تعبير محلى
يعبر عن التقاليد الشرقية (كان وفاء النيل المبارك) ، فان
المنشور الفرنسى ينطق بتعبير لغوى غربى خالص حين
يقول (وصف الاحتفال بعيد النيل) .

— ويأتى فى هذا قول الجبرى (صارى عسكر)
بينما المنشور الفرنسى يكتب (القائد العام) الى رتبة
الجنرال بالمنطوق الغربى فى وقت يتبين فيه أن صارى
عسكر لفظة فارسية الاصل محرفة الى العربية .

ان لفظة صارى بهذا المفهوم تعنى فى لغتها الاصلية
رأس ، بينما العسكر تعنى الجنود وبهذا يستقيم المعنى
الذى نوردته هنا .

— النظر أيضا الى دلالة لفظة (العقبة) وهو مركب
الاحتفال بوفاء النيل فى الشرق ، وهو يختلف عن لفظة
(غلايين) وهى السفينة الكبرى كما لم يعرفها الشرق
حينئذ .

— بينما يذكر المنشور الفرنسى كلمة (الملا) ولا نجد
ذكر هذا الاسم عند الجبرى ، فهو ينقل ظاهر حال هذا
الوقت ، فالترجم مسيحى شامى اذ ينقل الفاظا شاذة
غير مألوفة او دارجة فى مصر .

— يضاف الى ذلك عديد من الالفاظ والمقاطع مثل
(كسروا الجسر) بينما المنشور يقول (فى قطع حاجز
المياه) وأيضا فى (عملوا شنك مدافع) ، والشنك هنا
محرف عن (الجنك) وهى تعنى بالتركية كلمة « حرب » ،
كما أن (النقوظ) فى العربية التى كتب بها الجبرى يقابلها
فى (الكورييه) عبارة (نثر الجنرال القائد العام) .

وأیضا (حتى جرى الماء فى الخلیج) وتأتى فى المنشور الغربى من خلال لفظة أخرى (القناة) .

— لا يجب اغفال معنى مقطع الجبرتى (الانـرنج البلديين) ، وهو مقطع يقصد به المقيمين فى مصر من غير المصريين . كما أن (قليل من الناس البطالين) يقصد بها أولئك الذين يتعاونون مع الفرنسيين فهم فى نظره سيئون جدا الى درجة أنهم أكثر خيانة وسوءا من أولئك الذين أطلق عليهم فى مواضع الاستهجان والاستنكار (الحرافيش والحشرات) .

— ولا يجب أن يفوتنا أن نلاحظ أيضا أن لهفة نابليون على تأكيد الحماسة الشعبية لا تقل عن لهفته فى أن يستتب له الأمر ، وقد بدا هذا أيضا من لغة الاثرين ، ففى حين ينفى فيه الجبرتى وجود مثل هذا الحماس من الجمهور الضخم فى مثل هذا العيد الذى لم يخرج منهم (أحد) ، فان نابليون يقول من خلال صحيفته انه عاد الى ميدان الازبكية بعد الاحتفال ويتبعه (جمهور ضخم ينشد أناشيد المديح وفى الثناء على الجيش الفرنسى) .

ما يثير الى تباين الدوافع التى تجاوز اللغة ودلالاتها الى المواقف وطبيعتها .

وثمة ملاحظات أخرى كثيرة يمكن التعرف عليها من السطور أو ما بينها ، خاصة ، عند الجبرتى ، والتى لم

يشير الى تبريرها بشكل مباشر ، وهى كثيرة ، لعل من أهمها أنه لم يذكر كلمة (الجمهور) فى كل ما كتبه عن ثورات المصريين ، اللهم الا ، حين وصل الى ثورة المصريين على خورشيد (باشا) فقط ، وهذا كان يسبقه تطورات كثيرة تفسره .

وهذا لم يحدث حتى ذكرها نابليون .

الاحتفال بالمولد النبوى :

الكورييه — الطبعة الأصلية ص ٢ — رقم ١

» واحتفلت البلاد هذه الايام احتفالا رائعا بمولد النبى ، فأضيئت منازل القائد العام والجنراى ديوى Dipee والشيخ البكرى بالانوار الساطعة طول خمسة ايام . وفى الساعة العاشرة من كل ليلة من ليالى العيد سارت مواكب المسلمين فى المدينة وهى تنشد أناشيد المديح فى النبى كما أقامت حلقات الذكر على أضواء المشاعل . وحوالى الساعة الثامنة من ليلة أمس قام بعض جنود الحامية باستعراض عسكري رائع . ثم توجه لفيف من الضباط الفرنسيين بهيئة أركان الحرب يتقدمهم حملة المشاعل ورجال الموسيقى الى منزل الشيخ البكرى نقيب الاشراف . وقد أطلقت المدافع عدة طلقات ايدانا ببدء مسيرتهم ، كما أطلقت طلقات أخرى لدى وصولهم الى منزل النقيب .

وبعد أن تناول القائد العام طعام العشاء فى مأدبة فاخرة بمنزل الشيخ البكرى عاد الى مقره ، وأجرى عدد من المصريين ألعابا نارية وقاموا بها على أحسن وجه . وفى صباح اليوم التالى قام القائد العام بتقديم عباءة من الفراء الفاخر الى الشيخ البكرى بوصفه نقيباً للإشراف وهو المنصب الذى كان يشغله عمر أفندى من قبل . وقد حضر الاحتفال بتقديم العباءة أعضاء الديوان .

وفى يوميات الجبرتى ، ج ٣ ص ١٥ ، جاء :

« (وفيه) سأل صارى عسكر عن المولد النبوى ولماذا لم يعملوه كعادتهم فاعتذر الشيخ البكرى بتعطيل الامور وتوقف الاحوال فلم يقبل وقال لابد من ذلك وأعطى له ثلاثمائة ريال فرانسا معاونة وأمر بتعليق تعاليق واحبال وقناديل واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا مياديبهم وضربوا طبولهم وديابدهم وأرسل الطبلخانة الكبيرة الى بيت الشيخ البكرى واستمروا يضربونها بطول النهار والليل بالبركة تحت داره وهى عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية وعدة آلات ومزامير مختلفة الاصوات مطربة وعملوا فى الليل حراقة نفوط مختلفة وسواربخ تصعد فى الهواء . »

وكما رأينا سالفا ، فان وصف الجبرتى لطقوس المولد النبوى يرينا أن المصريين تعاملوا مع الغربيين بسلبية كان اهم مظاهرها هنا اعراضهم عن الاحتفال

بأكثر الاعياد اثارا عليهم ، وكان السبب فى عدم قيامهم بالاحتفال هى الظروف ، وهو ما لا يظهر — بالطبع — من منشور الكورييه ، فالعالمان مختلفان والثقافتان متباينتان .

وثمة ألفاظ تؤكد الفاصل الحضارى فى معنى لغوى ومعنى حضارى أبعد أثرا من كل هؤلاء ، من مثل (دبادبهم) ، وهى عبارة عن حملة الجنود الضخمة ، كما أن لفظة (الطبخانة) التى يضيف اليها لفظة (الكبيرة) انما تعنى الفرقة المصرية ، أما (البركة) فقد كانت فى الازبكية ، و (طبقات النوبة) هى البروجى ، ثم (الفروة) وما الى ذلك من مظاهر الاحتفال .

كما يلحظ من طبيعة اللغة التى يستخدمها الجبرتى نفسه العامل الداخلى الذى يحدد التباين بين الحضارتين ، فعلى مستوى الشخصيات ، نجد هذا يتمثل عند الجبرتى فى السلبية التى امتدت اليه ، وهذا يظهر من ذكر الجبرتى محاولات العديد من الفرنسيين لاسترضاء الشيوع — وبالتعبية العامة — بتشجيع الموالد والتبرع لها ، فان ذلك لم يثر رد فعل حسن فى أعماق الجبرتى ، لانه سلفى النزعة ، وسيدى اعجابه فيما بعد بالحركة الوهابية ، فى حين يستنكر الموالد وما يصحبها من بدع ومجون .

وهو ما سيلاحظه د . صلاح العقاد بعد ذلك بحوث ندوة الجمعية التاريخية . بحث الجبرتى والفرنسيس ص

٣٢١ .

تقليد أمير الحج :

الكورييه ، ص ٦ رقم ٣

« عين القائد العام السيد مصطفى أميرا للحج الى مكة وقد البس اليوم امام جميع موظفي الدواوين وأشرف البلد معطفها جمبلا لونه أخضر لهذه المناسبة وقد أهداه الجنرال بضع جواهر وحصانا عليه سرج جميل وحصانا محلى بأحسن كسوة .

وعند مغادرته الحفل ودعته ست طلقات أطلقها مدافع بطارية القلعة » .

وفي (يوميات) لـ الجبرتي ، السابق ، ص ١٦ جاء :

« في ربيع الاول ١٢١٣

(وفي عشرينه) قلدوا مصطفى بيك كتخدا الباشا على اماره الحج فحضروا عند المحكمة عند القاضي ولبس هناك الخلعة بحضرة مشايخ الديوان والتزام بونابرتيه بتشهيل مهمات الحج وعمل محلا جديدا » .

وكما نرى ، فان هناك الفاظا تؤكد الواقع مثل كتابة لفظتى (بونابرتيه) و (كلهير) وتفسيرها قد يتحدد فى اكثر من نقطة :

أما التقليل من شأن صاحب الاسم في الحديث ..
وأما أن يكون هو أسلوب النطق في هذا الوقت ..

ومما يجدر بالذكر ان هذا النطق (بونابرت) هو أقرب
الى النطق الايطالى ، الذى ينحدر ، بالتبعية ، من لفظة
(بونابرت) ، فالنطق الايطالى هو (بونابرت) نسبة الى
خصائص الايطالية نفسها ، وهو حينئذ لا يخرج في
الحالين عما كان قائما .

ويأتى في هذا أيضا قول الجبرتي (خلعة) بينما تكتبها
الكورييه (معطفا) ، والفارقة بين لفظتى (قلدوا)
و (عين) ان الاولى هى لغة الجبرتي بينما الثانية أسلوب
الغرب ، الاولى تعبر عن حضارة لاتزال تعيش في التقليد
والاخرى حضارة جاوزته الى مرحلة جديدة من مراحل
التطور .

ويأتى في هذا مقطع مثل (كتحدا الباشا) الذى
يضيف اليه الجبرتي آخر هو (مشايخ الديوان) الذى
يستبدل به الكورييه مقطع (موظف الدواوين واشراف
البلد) .

وتؤكد كل البيانات الاولى التى أطلقها بونابرت حين
هبط الى ثغر الاسكندرية مثل هذا الراى الذى نذهب اليه
الآن ، وتكرر كل وجهات النظر الخاصة بالفرنسيين على

معرفتهم بقيم المصريين واحترامهم لدينهم واستمرار مراسيم هذا الدين كما هي وقهر الممالك أعداء الشعب المصرى فى أول بياناتهم ، كما تتحدث عن المناسبات الدينية التى سبق أن أشرنا اليها مما يؤكد على ذكاء الغرب القادم عبر المحيط ، فقد جاء فى منشور نابليون ، وهو يختتم ، عبارة لا تخلو من معنى ، اذ يقول :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله ، لا ولد له ولا شريك) ..

كما أضيفت العبارة التالية فى البيان (انه صادر من الحكومة الفرنسية المبنية على أساس الحرية والمساواة) ، مؤكدا أكثر على ضرورة نصر المصريين على الممالك مضمنا هذا البيان بعبارة لا تخلو من معنى (وأصلح حال الأمة المصرية) كما نقل الجبرى عن المنشور الفرنسى ..

خطاب شريف مكة :

الكوريه ، السابق ، رقم ٦

يوم التكملة الثانى — السنة ٦ للجمهورية

ترجمة خطاب موجه الى شريف مكة من مشايخ وأعيان القاهرة :

« بعد تضرعاتنا الحارة الى الله التى تلهج بها الكسفتنا دائما أبدا ليحفظ مولانا امير المؤمنين والتاج الملكى للذرية

الهاشمية وسليل النبی الشریف غالب سلطان مكة حفظه
الله ليرمقه برعايته الى أعلى براتب المجد ويجنبه أى سوء
تأتى به الايام فى تعاقب الليل والنهار لما اكتسبه من بركات
جده المجيد وهو أقدر الشافعين .

نتشرف بابللاغ مولانا الذى لا يكف أبدا بعبقريته عن
رعاية مصالح الدين والمؤمنين والسادة آل عبد المناف أحد
مشاهير أجداد أوليائنا الشرفاء وعلماء الاسلام فى مكة
والقضاة والأئمة الخطباء وعموم تجار وموظفى الحكومة
فى المدينة المقدسة ان اليوم السابع من شهر صفر الذى
كان يوافق يوم السبت أقبل الجيش الفرنسى على أراضى
الجزيرة على ضفاف النيل الغربية وشن فى نفس اليوم
هجومًا على الممالك ... (و) ... وفى صباح اليوم
التالى توجه وفد من علماء الشريعة وأعيان القاهرة الى
الجزيرة طالبين الحماية والرعاية للمصريين ماعدا الممالك
وأتباعهم واستجاب القائد العام الى طلبهم هذا . ثم طلب
الوفد أن تلقى كالمعتاد خطبة الجمعة التى تعقد الأئمة
الخطباء القاءها فى المساجد يوم الجمعة عند صلاة الظهر
متضمنة الدعاء لصاحب العظمة السلطانية ، فوافق القائد
العام على أن تلقى هذه الخطب كما كانت وأضاف أنه من
أخلص أصدقاء السلطان العثمانى وأنه يحب جميع الموالين
له ويعتبر أعداء السلطان أعداء له شخصيا .

وأمر فى الحال أن تفتح أبواب الجوامع للمصلين

لاداء الشعائر الدينية والآذان وتلاوة القرآن بكل حرية
في مدينة القاهرة كالمعتاد .

وتكرم أيضا بإبلاغ الوفد أنه يسلم في قرارة نفسه
بأن الحقيقة التي لازاغ فيها هي أن الله هو الله وحده وان
معظم الفرنسيين يكونون لنبينا والقرآن أعظم تبجيل وأكثرهم
مقتنعون بسيادة الاسلام على جميع الاديان الاخرى وطل
القائد على قوله هذا باطلاق سراح جميع الاسرى المسلمين
الذين وجدهم في جزيرة مالطة بعد الاستيلاء عليها .

عندما عاد الحجاج من مكة واقتربوا من القاهرة ذهب
القائد العام بنفسه لملاقاتهم في مديرية الشرقية بعد سماع
الاخبار بأن بعض الاعراب اللصوص والمجرمين قد سلبوهم
متاعهم وخيراتهم . فاستقبلهم الجنود الفرنسيون وزودوا
من بقى منهم على قيد الحياة بالخيول والطعام والزاد
واسعفوا الجياع والعطاش .

وكان القائد العام قبل ذهابه الى الشرقية قد كتب
الى قافلة الحجاج يطلب منها العودة رأسا الى القاهرة
حيث تجد أحسن استقبال ولكن للأسف هذه الخطابات
لم تصل الى رجال القافلة الذين لا قوا مصيرهم المحتوم .

افتتحت قناة مدينة القاهرة — الخليج — هذا العام
باحتمالات غير عادية ارضاء للمؤمنين دون شك وتبيدا
لخاوفهم وهمومهم .

أجرى القائد توزيع مبالغ كبيرة من المال على سبيل الصدقة على الفقراء والمعوزين وأقام وليمة تكريما لاعيان البلد . كذلك أنفق أموالا كثيرة احتفاء بمولد النبى وسيد المرسلين وأقيمت احتفالات شيقة بهرت أنظار المؤمنين .

انا لله وانا اليه راجعون — يجب ألا يخفى عليكم أن القائد أبدى رغبة صادقة فى تعيين أمير الحج واتخاذ جميع الاجراءات التى تسبق رحيل قافلة الحج . وكان من رأينا معه أن يسند شرف هذه المأهورية الى السيد المحترم الأمير مصطفى أغا وهو من رجال صاحب السعادة أبو بكر باشا حاكم القاهرة ، ونحن نرجو أن يلقى هذا الاختيار وقعا حسنا من الباب العالى تأكيدا لحق من أعز الحقوق على قلبه . لذلك فقد أضفى هذا الاجراء البهجة والسرور وأدخل الطمأنينة على قلوب جميع المسلمين .

يبدى قائد الجيش الفرنسى نشاطا كبيرا وإخلاصا عظيما لمصالح الحرمين ويتفقد كل ما يلزم عمله بشأن رحلة قافلة الحجاج .

هذا هو ما أوصينا به لتكونوا على علم ، باعتبارنا شهود عيان بالعناية الفائقة التى يخص بها هذا الأمر المهم لكى تعملوا ما ترونه مناسبا من جانبكم .

السلام والف سلام على هذا الرسول المجيد الذى أتى يعلن الحقيقة على العالمين وقد وهبه الله كل الفضائل

والشمائل . سلام الله أيضا على أهله وصحبه في رسالته السماوية .

عمل بالقاهرة في ٢٥ من ربيع الاول سنة ١٢١٣ هجرية وقد ذيل بامضاءات عديدة جدا .

وفي يوميات الجبرتي ، ج ٣ ص ٢١ جاء في نفس الموقف :

« (وفيه) كتبوا من المشايخ كتابا ليرسلوه الى السلطان وآخر الى شريف مكة ثم أنهم بصموا منه عدة نسخ ولصقوها بالطرق والمفارق وصورته ملخصا بعد الصدور ذكر زرودهم وقتالهم مع المماليك وهروبهم وان جماعة من العلماء ذهبت اليهم بالبر الغربي فامنوهم وكذلك الرعية دون المماليك وذكروا فيه أنهم من أخصاء السلطان العثماني وأعداء أعدائه وان السكة والخطبة باسمه وشعائر الاسلام مقامة على ما هي عليه وباقية بمعنى الكلام السابق من قولها أنهم مسلمون وانهم محترمون القرآن والنبى وانهم أوصلوا الحجاج المشتتين وأكرمواهم وأركبوا الماشى وأطعموا الجيعان وسقوا العطشان واعتنوا بيوم الزينة يوم جبر البحر وعملوا به شأننا ورونقا استجلابا لسرور المؤمنين وأنفقوا أموالا برسم الصدقة على الفقراء وكذلك اعتنوا بالمولد النبوى وأنفقوا أموالا بشأن انتظامه وأتفق رأينا ورأيهم على لبس حضرة الجنب المحترم مصطفى أغا كخدا بكر باشا والى مصر حالا فاستحسننا ذلك لبقاء علقه الدولة العلية وهم أيضا

مجتهنون في اتمام مهمات الحرمين وأمرونا أن نعلمكم بذلك
والسلام .

ويلاحظ هنا أن التباين واضح أشد الوضوح بين
الأثرين ، فقد ارتدى زيا وطنيا أو دينيا ، غير أن التدقيق
فيه يميّط اللثام عن فارق حضارى أبعد أثرا من الدلالة
المباشرة .. هذا يبدو في (بريد) نابليون بالقدر الذي يبدو
في (يوميات) الجبرتي .

عند نابليون لا نخطأ قط التوسل باللهجة الدينية
ومحاولة الانفاذة منها لدى المسلمين وهو ما يظهر على
لسان الخطاب الموجه الى جهات دينية من مشايخ مصر
وأعيانها الكبار ، حين يظهر الثناء على الفرنسيين ثناء
عاليا ممتثلا في ذكر مآثرهم من فتح المساجد واقامة الموالد
واستقبال الحجاج وما الى ذلك .. أما عند الجبرتي ،
فاننا لا نخطأ موقف المؤرخ العربى الفطن ، الذى يتحدث
فيقدم الفعل الموحى (كتبوا ، بصموا ، الصقوا .. الخ)
الى غير ذلك مما يشير الى أن ما جاء به المشايخ والتجار
والكبار انما هو بناء على طلب الفرنسيين المحتلين وليس
عن اراداتهم وحسب .

اجتماع الديوان :

ومع معاينة النصوص والتوقف عندها يتأكد لنا زيادة
الهوة بين الطرفين ، وهو ما نجده في تضاعيف هذين
النصين أيضا :

كورييه رقم ١١

٢٠ فاندميمير — السنة ٧ للجمهورية

» اجتماع الديوان العام فى مصر

يجتمع الآن فى القاهرة تحت اسم الديوان العام نواب من جميع الاقاليم فى القطر المصرى ، وذلك بناء على امر القائد العام — وقد عقدوا جلستهم الاولى فى ١٦ فاندميمير وكان المواطنان مونج وبرتوليه يمثلان الفرنسيين فى هذه الاجتماعات بصفة مندوبين . وقد زادت من عظمة هذا الاجتماع ، الملابس الاسلامية الجميلة وزانة وهدوء اصحابها مع من كان يرافقتهم من كثرة الاتباع .

لقد اختير الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيسا للاجتماع . . وسنحيط قراءنا علما بما ستقوم به هذه الهيئة سواء فى المجال السياسى او فى مجال خدمة العلم والحضارة » .

وجاء فى يوميات الجبرتى ، ج ٣ ص ٢٢ ، ٢٣

» (وفى يوم الجمعة رابع عشرينه) نبهوا على المشايخ والاعيان والتجار ومن حضر من الاقطار بالحضور الى الديوان العام ومحكمة النظام بكرة تاريخه وذلك ببيت مرزوق بيك بحارة عابدين فلما أصبح يوم السبت اعدوا التنبيه بحضورهم بالديوان القديم ببيت قائد اغا بالايزكية فتوجه المشايخ المصرية والذين حضروا من الثغور والبلاد

وحضر الوجاقات واعيان التجار ونصارى القبط والشوام
ومديرو الديوان من الفرنسيين وغيرهم جميعا موفورا فلما
شرع بهم المقام شرع ملطى القبطى الذى عملوه قاضى فى
قراءة فرمان الشروط والمناقشة فابتدر كبير المدبرين فى
اخراج طومار آخر وناوله للترجمان فنشره وقراه وملخصه
ومضمونه الاخبار بأن قطر مصر هو المركز الوحيد وأنه
أخصب البلاد وكان يجلب اليه المتاجر من البلاد البعيدة
وان العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التى يعرفها الناس
فى الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الاول ولكون قطر مصر
بهذه الصفات طمعت الأمم فى تملكه فهلكه أهل بابل وملكه
اليونانيون والعرب والترك الآن الا ان دولة الترك شددت فى
خرابه لانها اذا حصلت الثمرة قطعت عروقها فلذلك لم يبقوا
بأيدي الناس الا القدر اليسير وصار الناس لأجل ذلك
مختفين تحت حجاب الفقر وقاية لأنفسهم ومن سوء ظلمهم
ثم ان طائفة الفرنساوية بعدما تمهد أمرهم وبعد صيتهم
بقيامهم بأمور الحرب اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما
هى فيه وراحة أهلها من تغلب هذه الدولة المفعمة جهلا
وغباء فقدّموا وحصل لهم النصرة ومع ذلك لم يتعرضوا
لأحد من الناس ولم يعاملوا الناس بقسوة وان عرضهم
تنظيم أمور مصر واجراء خلجاتها التى دثرت ويصير لها
طريقان الى البحر الابيض وطريق الى البحر الاحمر فيزداد
خصبها وريعها ومنع القوى من ظلم الضعيف وغير ذلك

استجلابا لخواطر أهلها وابقاء للذكر الحسن فالمناسب من أهلها ترك الشـغف واخلاص المودة وأن هذه الطوائف الحاضرة من الأقاليم يترتب على حضورها أمور جليلة لأنهم أهل خبرة وعقل فيسألون عن أمور ضرورية ويجيبون عنها فينتج لصارى عسكر من ذلك ما يليق صنعه الى آخر ما سطره من الكلام قلت ولم يعجبني في هذا التركيب الا قوله المفعمة جهلا وغباوة بعد قوله اشتاقت أنفسهم ومنها قوله بعد ذلك ومع ذلك لم يتعرضوا لاحد الى آخر العبارة ثم قال الترجمان نريد منكم يامشايع ان تختاروا شخصا منكم يكون كبيرا ورئيسا عليكم ممثلين أمره فقال بعض الحاضرين الشيخ الشرقاوى فقال نو نو (أى لا لا) وانما ذلك يكون بالقرعة فعملوا قرعة بأوراق فطلع الاكثر على الشيخ الشرقاوى فقال حينئذ يكون الشيخ عبد الله الشرقاوى هو الرئيس فاتم هذا الأمر حتى زالت الشمس فاذنوا لهم فى الذهاب والزموهم بالحضور فى كل يوم » .

ومع تتابع المقارنة ، كما نرى ، يعمق التباين أكثر ويتأكد .. فبينما نجد لفظة (امر) مشفوعة بالقائد العام نجد الجبرتى يذكر لفظ (نبهوا) و (أعادوا التنبيه) ، وهو ما يعيد على الاذهان دلالة الالفاظ فى كشف السلوك الذى هو من صور الذات والخاصية الحضارية . كما يلفت النظر هنا ، أيضا ، ان صحيفة نابليون تذكر هذه المظاهر التى تقترب من السلوك الدستورى ، فان

الجبرتى بعد أن يسرد بعضها لا يعجبه فيها الا مقطعا واحدا هو (المفعم جهلا وغبابة) ، وهو ما يشير الى أن الاحتفاء بالبيان والمجاز في الحضارة العربية هو احتفاء يفوق النظام والوسائل الدستورية بمعناها السياسى فى الحضارة الأوروبية .

ولا يمكن هنا أيضا ان نغفل الوصف البدهى لانتخاب أو اختيار الحاكم هنا ، فبينما تذكر اللغة الفرنسية أن ذلك تم بواسطة الاختيار بالطريقة الدستورية ، فان الجبرتى لا يعثر فى التعبير عن هذا الا كلمة مثل (قرعة) .

وبين الاختيار واجراء القرعة معان ظاهرية ودلالات أكثر بعدا وعمقا فى الحضارتين الشرقية والغربية بالطبع .

وربما أشرنا الى وعى صحيفة نابليون بالواقع المصرى منذ أبعد حقبـات التاريخ مما يلح على الدافع القوى ، فى وقت ، بأن الدافع الاسلامى مازال هو الدافع الوحيد ، على وجه التقريب ، الذى يرسم الملامح العامة لاقطار الشرق العربى .

ورغم أننا سنلحظ فى نهاية فترة الوجود الفرنسى فى مصر وعيا فائقا لدى الجبرتى وعديد من (المشايخ) المصريين فى تفهم هذا التباين بين الشرق والغرب ودلالته ، فاننا سوف نلحظ مراحل هذا التباين تمضى رويدا رويدا .

وقبل أن نصل الى نهاية هذا السياق ، سوف نختر
نصين يعبران أكثر منها عن حالة المفارقة بين الحضارتين،
وهما نسان محملان بالمعانى الفياضة التى تؤكد هذا .

منشور الثورة :

١٠ برومير- السنة السابعة للجمهورية

القاهرة فى ٦ برومير سنة ٧

« فى فجر يوم ٣٠ فاندمير ظهرت بعض التجمعات
فى مدينة القاهرة وفى الساعة ٧ صباحا تجمع جمع غفير ،
امام باب القاضى ابراهيم حاتم أفندى وهو رجل محترم
باخلاقه وصفاته . ذهب اليه وفد من عشرين شخصا
من أبرز الشخصيات وأرغمه على أن يمتطى جواده
ويصحبهم الى .. ثم مضوا فى طريقهم الى .. وبينما
هم فى الطريق وجه رجل عاقل رشيد نظر القاضى الى
أن الجمع يضم عددا قليلا وغير منظم من الرجال ، كل
ما يريدونه هو تقديم عريضة فبهر القاضى من هذه الملاحظة
مقتنعا بها ثم ترجل عن جواده وذهب الى منزله .

ولكن ذلك لم يرق للجماهير الغاضبة فانقضت عليه
وعلى أهل بيته ورجمتهم بالحجارة وضربتهم بالعصى
وسلبت ونهبت ما فى المنزل .

ولما ذهب الجنرال دبوى قائد الحامية الى مكان

الحادث في غضون ذلك وجد جميع الشوارع قد سدت أمامه وكان هناك قائد كتيبة تركي فلما رأى الضوضاء واستحال عليه تهدئتها بالحسنى أطلق النار للارهاب فاستشاطت الجموع غضبا وزاد هياجها مهاجمنا الجنرال دوبوى بجنده وشنت كل من تصدى له وفتح لنفسه طريقا ولكنه أصيب بضربة رمح تحت ابطه فانقطع شريان أمهله الحياة لمدة ثماني دقائق فقط .

وتسلم القيادة من بعده الجنرال بون وقصفت المدافع وتبدلت النيران في جميع الشوارع وسطت الجماهير على بيوت الاغنياء تسلبها وتنهبها .

وفي المساء كانت المدينة قد هدأت كلها تقريبا الا حي الجامع الكبير حيث كان يجتمع مجلس الثوار الذين أقاموا المتاريس في الشوارع المؤدية له .

وفي منتصف الليل تمركز الجنرال دومارتان على رابية بين القلعة والقبة ، التي تقع على بعد حوالي ٣٠٠ متر من الجامع الاكبر ومعه ٤ مدافع .

كان العرب والفلاحون يسرون متلھفين لنجدة الثوار فأمر الجنرال لان للجنرال فو بالهجوم على نحو ٤ أو ٥ آلاف فما أن رأوهم حتى فروا بأسرع مما كان متوقعا وغرق منهم عدد كبير في مياه الفيضان .

وفي صباح اليوم التالي أرسل الجنرال دوماى
ملائع فرقة من الخيالة لاستطلاع الامور فطرد العرب
بعيدا عن القبة .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر كان كل شىء هادئا
خارج سور المدينة . وعندما تقدم رجال الديوان وكبار
المشايخ ورجال الشريعة نحو المتاريس المقامة فى حى
المسجد الاكبر رفض الثوار السماح لهم بالمرور
واستقبلوهم بطلقات البنادق .

وكان الرد فى الساعة الرابعة باصلاهم نارا حامية
من مدفعية القلعة ومدفعية الجنرال دومارتان وفى أقل من
عشرين دقيقة من قصف المدافع رفعت الاستحكامات
والمتاريس وانفض المتظاهرون من الحى واستولت قواتنا
على المسجد وعاد الهدوء التام الى كل المنطقة .

وتقدر خسائر الثوار بحوالى ٢٥٠٠ قتيل وخسائر
١٦ جنديا قتلوا و ١١ مصابا فيهم واحد خنقه الثوار فى
الشارع و ٢٠ رجلا من مختلف ولاحدات والرتب .

ان الجيش يشعر بخسارته فى فقدان الجنرال دوبوى
الذى سبق أن أخطأه الموت فى مفاجآت الموت مائة مرة .

وعندما ذهب ياورنا سولكوسكى فى فجر يوم أول
برومير لاستطلاع الحركات التى كانت تبدو خارج المدينة
هاجمته بدوره الجماهير فى ضاحية من الضواحي ولما

انزلت ارجل حصانه انهالت عليه الجماهير ولم تلقئم الجراح التى أصابته فى معركة الصالحية ثمات .

لقد كان ضابطا ذا مستقبل عظيم » .

اما فى (يوميات) الجبرتى ، ج ٣ ص ٢٥ - ٢٧ فنقرأ فى نفس الحادثة :

» (وفى يوم السبت عاشر جمادى الاول) عملوا الديوان واحضروا قائمة مقررات الاملاك والعقار فجعلوا على الاعلى ثمانية فرانسة والاوسط ستة والادنى ثلاثة وما كان أجرته اقل من ريال فى الشهر فهو معافى واما الوكائل والخانات والحمائم والمعاصر والسيارح والحوانيت فممنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بخسب الخسة والرواج والاتساع وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم والصقوها بالمفارق والطرق وأرسلوا منها نسخا للاعيان وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الاعلى من الادنى وشرعوا فى الضبط والاحصاء وطاقوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أربابها ولما أشيع ذلك فى الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك والبعض استسلم للقضاء فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا فى ذلك ووانقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عواقب الامور ولم يتفكر أنه فى قبضة مأسور فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم وأصبحوا يوم

الأجد متحيزين وعلى الجهاد عازمين وأبرزوا ما كانوا
أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكتاح وحضر السيد
بدر وصحبته حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية
ولهم صياح عظيم وهول جسيم ويقولون بصياح في الكلام
نصر الله دين الاسلام فذهبوا الى بيت قاضي العسكر
وتجمعوا وتبعوا ممن على شاكلتهم نحو الالف والاكثر
فخاف القاضي العاقبة وأغلق أبوابه وأوقف حجابيه فرجموه
بالحجارة والطوب وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب وكذلك
اجتمع بالأزهر العالم الأكبر وفي ذلك الوقت حضر دوى
بطائفة من فرسانه وعساكره وشجعانه فمر بشوارع
الغورية وعطف على خط الصنادقية وذهب الى بيت
القاضي فوجد ذلك الزحام فخاف وخرج من بين القصرين
وباب الزهومة وتلك الاخطاط بالخلائق مزحومة فبادروا
اليه وضربوه راثخنوا جراحاته وقتل الكثير من فرسانه
وابطاله وشجعانه فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم
وخرجوا يهرعون ومن كل حذب ينسلون ومسكوا الاطراف
الدائرة بمعظم اخطاط القاهرة كباب الفتوح وباب النصر
والبرقية الى باب زويلة وباب الشعرية وجهة البندقانيين
وما حذاها ولم يتعدوا جهة سواها وهدموا مصاطب
الحوانيت وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة لتعوق هجوم
العدو في وقت المعركة ووقف دون كل متراس جمع عظيم
من الناس واما الجهات البرانية والنواحي الفوقانية فلم

بفزع منهم فازع ولم يتحرك منهم احد ولم يسارع وكذلك
 شذ عن الوفاق مصر العتيقة وبولاى وعذرهم الاكبر قريهم
 من مساكن العسكر ولم تزل طائفة المحاريين فى الازقة
 متترسين فوصل جماعة من الفرنساوية وظهروا من ناحية
 المناخلية وبنشقوا على متراس الشوائين وبه جماعة من
 مغاربة الفحاهمين فقاتلوهم حتى اجلوهم عن المناخلية
 ازالوهم وعند ذلك زاد الحال وكثر الرجف والزلازل
 وخرجت العامة عن الحد وبالفوا فى القضية بالعكس
 والطرد وامتدت ايديهم الى الذهب والخطف والسلب
 فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى والشوام
 الاروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام واخذوا
 الودائع والامانات وسبوا النساء والبنات وكذلك نهبوا
 خان الملايات وما به من الامتعة والموجودات واكثروا من
 المعاييب ولم يفكروا فى العواقب وياتوا تلك الليلة سهرائين
 وعلى هذا الحال مستمرين واما الافرننج فانهما اصبحوا
 مستعدين وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين واحضروا
 جميع الآلات من المدافع والقناشير والبنات ووقفوا
 مستحضرين ولامر كبير كبيرهم منتظرين وكان كبير
 الفرنسيين ارسل الى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها
 ومل من المطاولة هذا والرمى متتابع من الجهتين وتضاعف
 الحال ضعفين حتى مضى وقت العصر وزاد القهر والحصار
 فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنات على البيوت والحارات

وتقدموا بالخصوص الجامع الأزهر وجروا عليه المدافع والنبر وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين سوق الغورية والفحامين فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ولم يكونوا في عمرهم عاينوه نادوا ياسلام من هذه الآلام يا خفى اللطاف نجنا مما نخاف وهربوا من كل سوق ودخلوا في الشقوق وتتابع الرمي من القلعة والليمان حتى تزعزعت الأركان وهدمت في مرورها حيطان الدور وسقطت في بعض القصور ونزلت في البيوت والوكائل وأصممت الأذان بصوتها الهائل فلما عظم هذا الخطب وزاد الحال والكرب ركب المشايخ إلى كبر الفرنسيين ليرفع عنهم هذا النازل ويمنع عسكرهم من الرمي المتراسل وكفهم كما كف المسلمون عن القتال والحرب خدعة وسجال فلما ذهبوا إليه واجتمعوا عليه عاتبهم في التأثير واتهمهم في التقصير فاعتذروا إليه غقبل عذرهم وأمر برفع الرمي عنهم وقاموا من عنده وهم ينادون بالآمان في المسالك وتسامع الناس بذلك فردت فيهم الحرارة وتسابقوا لبعضهم بالبشارة وأطمأنت منهم القلوب وكان الوقت قبل الغروب وانقضى النهار وأقبل الليل وغلب على الظن أن القضية لها ذيل وأما أهل الحسينية والعطوف البرانية فانهم لم يزالوا مستمرين وعلى الرمي والقتال ملازمين ولكن خانهم المقصود وفرغ منهم البارود والافرنج اثخنوهم بالرمي المتتابع وبالقنابر وبالدافع إلى أن مضى من الليل نحو ثلاث

ساعات وفرغت من عندهم الادوات فمعجزوا عن ذلك
وانصرفوا وكف عنهم القوم وانحرفوا وبعد هجمة من الليل
دخل الافرنج المدينة كالسيل ومروا في الازقة والشوارع
ولا يجدون لهم مانع كأنهم الشياطين أو جند ابليس وهجموا
ما وجدوه من المتاريس ودخل طائفة من باب البرقية
ومشوا الى النورية وكروا ورجعوا وترددوا وما هجموا
وعلموا باليقين بأن لا دافع لهم ولا كمين . وتراسلوا
ارسالا ركبانا ورجالا ثم دخلوا الى الجامع الازهر وهم
راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفوقوا بصحته
ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالاروقة والحارات
وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة
والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والاواني
والقصاع والودائع والمخبات بالدواليب والخزانات ودثتوا
الكتب والمصاحف على الأرض طرحوها بأرجلهم ونعالهم
داسوها وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا
الشراب وكسروا أوانيهم وألقوا بصحنه ونواحيه وكل من
صادفوه عروه ومن ثيابه أخرجوه وأصبح يوم الثلاثاء
فماصطف منهم حزب بباب الجامع فكل من حضر للصلاة
يراهم فيفر راجعا ويسارع وتفرقت طوائفهم بتلك النواحي
أفواجا واتخذوا السعى والطواف بها منهاجا واحاطوا بها
احاطة السوار ونهبوا بعض الديار بجحة التفتيش عن
النهب وآلة السلاح. والضرب وخرجت سكان تلك الجهة

يهرعون للنجاة بأنفسهم طالبون وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كان أشرف البقاع ويشرف الناس في سسكنها ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه الضياع والفرنساوية لا يملرون بها الا فى النادر ويحترمونها عن غيرها فى الباطن والظاهر فانقلب بهذه الحركة منها موضوع وانخفض على غير القياس المرفوع ثم تردوا فى الاسواق ووقفوا صفوفا مئينا والوفا فان مر بهم أحد فتشوه وأخذوا ما معه وربما قتلوه ورفعوا القتلى والمطروحين من الافرنج والمسلمين ووقف جماعة من الفرنساويين ونظفوا مراكز المتاريس وأزالوا ما بها من الأتربة والاحجار المتراكمة ووضعوها فى ناحية لتصير طرق المرور خالية وتحزبت نصارى الشوام وجماعة أيضا من الاروام الذين انتهبت دورهم بالحارة الجوانية ليشكوا لكبير الفرنسييس ما لحقهم من الرزية واغتنموا الفرصة وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين وضربوا فيهم المضارب وكأنهم شاركوا الافرنج فى النوائب وما قصدهم المسلمون ونهبوا مالديهم الا لكونهم منسوبين اليهم مع أن المسلمين الذين جاورهم نهبوهم الذعر أيضا وسلبوهم وكذلك خان الملايات المعلوم الذى عند باب حارة الروم وفيه بضائع المسلمين وودائع الغائبين فسكت المصاب على غصنه واستعوض الله فى قضيته لانه ان تكلم لا تسمع دعواه ولا يلتفت الى شكواه . وانتدب برطلمين للعسس على من حمل السلاح واختلس وبث أعوانه فى

الجهات يتجسسون في الطرقات فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم وما ينهيه النصارى من ابغاضهم فيحكم فيهم لمراده ويعمل برأيه وقياده ويأخذ منهم الكثير ويركب في موكبه ويسير وهم موثقون بين يديه بالحبال ويسحبهم الاعوان بالقهر والنكال فيودعونهم السجونات ويطلبونهم بالتهوبات ويقررونهم بالعقاب والضرب ويسألونهم عن السلاح والآلات والحرب ويدل بعضهم على بعض فيضعون على المدلول عليهم أيضا القبض وكذلك فعل مثل ما فعلوا اللعين الأغا وتجبر في أفعاله وطفى وكثير من الناس ذبحوهم وفي بحر النيل قدموهم ومات في هذين اليومين وما بعدها أم كثيرة لا يحصى عندها الا الله وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم وأصبح يوم الأربعاء فركب فيه المشايخ أجمع وذهبوا لبيت صارى عسكر وقابلوه وخاطبوه في العفو ولاطفوه والتمسوا منه أمانا كافيا وعفوا ينادون به باللغتين شافيا لتطمئن بذلك قلوب الرعية ويسكن روعهم من هذه الرزية فوعدهم وعدا مشوبا بالتسويق وطالبهم بالتبيين والتعريف عمن تسبب من المتعممين في اثارة العوام وحرصهم على الخلاف والقيام فغالطوه عن تلك المقاصد فقال على لسان الترجمان نحن نعرفهم بالواخذ فترجوا عنده في اخراج العسكر من الجامع الأزهر فأجابهم لذلك السؤال وأمر باخراجهم في الحال وابقوا منهم السبعين أسكنوهم في

الخطة كالضباططين ليكونوا للأمور كالراصدين وبالأحكام متقيدين ثم انهم فحصوا على المتهمين فى اثاره الفتنة وطلبوا الشيخ سليمان الجوسقى والشيخ أحمد الشرقاوى والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ يوسف الصيفى والشيخ اسماعيل البراوى وحبسوهم ببيت البكرى وأما السيد بدر المقدسى فانه تغيب وسافر الى جهة الشام وفحصوا عليه فلم يجدوه وتردد المشايخ لتخليص الجماعة العوقين فغولطوا واتهم أيضا ابراهيم أفندى كاتب البهار بأنه جمع له جمعا من الشطار وأعطاهم الأسلحة والمساوق وكان عنده عدة من المالك المخفيين والرجال المعدودين وقبضوا عليه وحبسوه ببيت الأغا .

وعلى هذا النحو ، نصل الى شىء هام يلخصه موقف الجبرتى نفسه كاحدى القيادات الدينية المثقفة ، فهو ، كما رأينا ، لم يكن راضيا عن الثورة ، وعدم رضاه يعود الى أسباب كثيرة لعل من أهمها أنه كان محافظا شديد المحافظة ، ومن ثم ، تبرمه بالعنف ، فضلا عن الوعى الذى دفعه ليرى فى الثورة عبثا مادام أصحابها لم يتخذوا العدة لمواجهة عدو مستعد مدجج بأحدث الأسلحة ، غير أن المحافظة كانت العامل الاول فى موقفه .

ويمكن أن نشير بعد ذلك الى أسباب أخرى منها أسلوب الجماهير غير المنظم متمثلا فى الفوضى الضاربة باطنابها والحركة التلقائية دون ما قيادة أو تنظيم ..

ويبدو عدم رضاه في لوم القيادات ، أو التمرد لانهم
أثروا العاطفة والفوغائية وهم من يسميهم (المعممين) ،
وقد كان الأولى بهم في رأيه أن يتدبروا قبل أن يقدموا على
هذه الفعلة الهوجاء التي لم يجنوا من ورائها غير الفشل .

ويترجم عدم رضاه أيضا وصفه الغريب لرجال
الثورة ، وهو في الوقت نفسه يترجم موقفه منهم حين
يصفهم فيقول (الفوغاء أو الحشرات أو الذعر) ، فعلى
الرغم مما يبدو من القسوة في هذا الرأي ، فإنه لا مفر من
قبول رأيه في ضوء عصره ، أنه من العبث التمرد على
قوات أقوى مما ينتج عنه خسائر كثيرة منها مما كان
بصحب هذا التمرد غير المنظم من حركة سلب ونهب
وتخريب ودمار يصل الى درجة بعيدة .

ونخطو خطوة أخرى لتجاوز مفهوم الجبرتي المتباين
الى دلالة الفاظه ، لنرى ، من ثم ، عمق هذا التباين بين
العالمين ، بينما نقرأ في أوراق الجبرتي (المعممين الجهاد ،
حشرات الحسينية وذعر الحارات البرانية ، المسلمون ،
الكفار ، الشطار ، ضربوا بالمدافع ، وتعمدوا بالخصوص
الجامع الازهر) فان الدلالة تختلف في الفاظ صحيفة
نابليون حين نقرأ (التجمعات ، قائد كتيبة تركي ، الجماهير
العرب والفلاحين ، المتاريس حول المسجد الاقصى ،
المتظاهرون ، خسائر الثوار . .) مما يشير الى اختلاف
العالمين الشرقي والغربي اختلافا كبيرا ، فاذا جاوزنا

المعنى الظاهر لوصلنا الى غايات البيان والبديع والمجاز تلك التى تظل السمة الغالبة على أسلوب الجبرتي ، اذ لا نخطأ هذا السجع المتتابع واحتواء تاريخه للتراجم والاخبار فى آن واحد وتسجيله للاحداث فى شكل (يوميات) أى بشكل مباشر واحتوائه على وثائق وعديد من الروايات المدونة بنصوصها كما عرفت فى هذا الزمن سواء بأعجميتها أو عربيتها أو حتى ركاكتها وهذه الخواطر التى تدون كلها عن لصاحبها فضلا عن اجتواء الكتاب لبعض النوادر والاشعار والزخارف اللفظية وما الى ذلك مما يشير الى أن منهج الجبرتي فى تسجيل التاريخ انها يعود الى المنهج الاسلامى — لا الغربى — الذى يمتد الى ابن اياس وأحمد شلبى عبد الغنى ثم الاسحاقى وابن ابى السرور البكرى الصديقى ثم عبد الله الشرقى فى عصره .

ويمكن أن نضرب مثلا لهذا التباين فى لفظة (الجمهور) التى ذكرت بمعنى يختلف عن لفظة (جمهور) فى موضع آخر ، فلكل موضع استخدام مختلف ، يقترب أو يبتعد من التأثير بالمدرسة الاسلامية حسب اقترايه أو ابتعاده ، من أحداث عصره والمؤثرات التى أسهمت فى تجديد المعنى، وفى جميع الحالات فان التفسير يرتبط بالعصر .

وقد نسهب أكثر فى درجات التباين بين الاثرين . . ففى حين يلاحظ ان الشرارة التى أوقدت الثورة عند الجبرتي تمثلت فى ضرائب (الاملاك والعقار) ، فان وثائق الفرنسيين

لا تذكر هذا السبب ، وليس معنى هذا أن الضرائب هي السبب المباشر وراء الثورة ، ولكنها ذريعة لهذا الاختلاف بين الجانبين .

وفى هذا يمكن تأكيد أن أسباب الثورة لا تتجاوز مفهوم الاختلاف بأية حال ، وهو اختلاف بواعت كثيرة بعضها مادية وبعضها مستوى .

أما المادى فهو يتمثل فى جملة من تعليمات الادارة الفرنسية التى اضطرت اليها والتى كانت جديدة بالنسبة الى شعب مغاير من أمثال القروض والبيوع الاجبارية واوامر الاستيلاء والغرامات وما الى ذلك ، أما المعنوى ، فهو ما تمثّل فى تعليمات أخرى كانت تظهر الباعث المادى لكنها تطوى الباعث المعنوى مثل أمر أصحاب الحوانيت باضاعة مصابيح الشوارع طوال الليل أمام الحوانيت ، وأمر نابليون بهدم عدة بيوت لأنها عاقت الاستحكامات . وإلى غير ذلك من البواعث التى اندهش الشعب لغرابتها بالنسبة اليه ، ولم تكن لتستطيع هذه الاوامر أو التعليمات المغايرة أن تعمل شيئاً فى شعب كان فقهاؤه يدعون الى الثورة (خمس مرات فى اليوم) على رأى كرسنوفر هيرولد (بونابرت فى مصر ، ٢٦٢) .

وربما ارتبط بهذا تأرجح موقف الجبرتى أيضا فى أكثر من مرة لغرابة أفعال الفرنسيين المختلفين عن شعب أعزل ،

وهو موقف ينتمى ، كما أسلفنا ، الى فكره الذى يفهم العدل على أنه اقامة الشريعة الاسلامية والرفق بالناس خاصة اذا كان الحاكم هذه المرة أجنبيا ، فهو يعلق على موقف القائد الفرنسى — نابليون — بعد أن أرسل المنشور الاول وقال فيه (اننى ما قدمت لكم الا لكيما اخلص حقكم من يد الظالمين) فان الجبرتى يردد مباشرة فى (مظهر التقديس) قائلا (هذه أول كذبة ابتدورها وفرية ابتكرها) (ص ٢ ، ٣) ، كما أن يوميات (العجائب ، ج ٣) زاخرة بضروب ظلم الفرنسيين ، فكما نرى الوصف السابق لاحداث ثورة القاهرة الاولى ، فانه يعلق على أفعال الفرنسيين لاختاد الثورة ، انهم ، أى الفرنسيون ، قد (نالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم) (ج ٣ ، ص ٢٧) ويضيف معددا ما يفعلون من (استمرار القبض على الناس وكبس البيوت بأدنى شبهة) وما الى ذلك حتى لم يسلم من هذا المصير أحد من فئات الشعب .

وعلى أية حال ، فان دراسة الجبرتى فى علاقته بالغرب واستبطان البنى الزمنية أو الدلالات الفكرية يدلان على شتة الخلاف بين هذين العالمين ، فى وقت لم يكن المصريون خلال قرون بعيدة الى الوراء قد اختلفوا فى رأيهم بعهد عن الصليبيين سواء فى قدراتهم الحربية أو الحضارية ، فحتى اذا ما جاءوا هذه المرة ، بدأ الصراع مغايرا نتيجة لان العالم كان مغايرا .

ومن هنا ، فان (الصدمة) الاولى كانت كافية للسير
فى العالم الغربى أو فى عصره ، لكن بمقومات عالمنا نحن
وعصرنا أيضا .

والسؤال يظل هو :

ما هى أهم الدوافع وراء دواعى التدوين والتعبير ؟
فلنحاول الاجابة عنه ..

أن الدافع الاول الذى لا نستطيع التخلص منه قط ،
يظل اختلاف الشرق عن الغرب ، وهو اختلاف تغاير ..
وكما اسلفنا ، فان تقليدية الجبرتى ، وان كان مغاليا فيها ،
لا تحمل بالضرورة تخلفا حضاريا ، كما أن رؤية نابليون ،
وان كان طموحا فيها ، تنطوى بالضرورة على هدف
حضارى .

ويمكن أن نتابع مع ذلك عددا من التفرعات وراء هذا
التغاير ..

لقد كان الجبرتى اثناء الوجود الفرنسى يسجل فى
كراساته الخاصة أعمال ومنشورات القادة ومراسلاتهم كما
وصلت اليه ، وراح يسجل أيضا ما رآه فى الغالب رأى
العين فى أوراق متناثرة يسميها (طيارات) حتى اذا ما خرج
الفرنسيون وكان لابد أن يمضى وقت طويل على هذا عهد
أن يبدأ بعد ذلك الى تسجيل تاريخه بغرض تذكير الناس
ماحدث والامادة منه . أما نابليون ، فقد اختلف فى صحيفته .

عن يوميات الجبرتي ، اذ سعى الى طبعها لنشرها بين افراد جيشه للتعرف على اخبار أوروبا وأخبار البلد التي تواجدوا فيها حتى تحمل هذه الجريدة الاخبار الى الخارج وتحمل أيضا اخبار الخارج الى الداخل لكي يتسنى فهم ما يحدث خارج المستعمرة الجديدة أو في أطرافها .

لقد راح الجبرتي يدون (يومياته) بينه وبين نفسه .

وراح نابليون يدون الاخبار بينه وبين الآخرين .

كان الجبرتي يهدف الى تسجيل ما يرى .

أما نابليون فكان يهدف الى املاء ، ارادته من خلال تجربة الاستعمار .

ومن هنا ، عاد الجبرتي الى كراساتهِ التي سجل فيها الاحداث حتى خروج الفرنسيين ، أما نابليون ، فقد راح يرسل وقتها أعدادا كبيرة منها الى «كليب» في الاسكندرية ليطبغ منها ما يستطيع من الكميات ليعيد توزيعها على رجاله .

كان الجبرتي مؤرخا وطنيا ينتمي الى الشرق ، أما نابليون ، فقد كان قائدا حالمًا ينتمي الى الغرب ، غرب القرن الثامن عشر بأحلامه الصاعدة .

وهو ما يفسر احترام نابليون رجال الدين المصريين في الظاهر ، بينما في (بريد) الحملة راح يسجل ما يعن له لسد تبرير سياسته والتكريس لها .

سبب آخر يحدد دوافع الكتابة عند الاثنين ، فالجبرتي لم يكن ليسعى لغير تسجيل « اليوميات » ، أما نابليون ، فقد كانت أحلامه (الزاهية) التي استولت عليه دافعا له ليغلو في أخباره غلوا كثيرا ، وهو نابليون الذي قال أثناء فترة نفيه حين راح يسترجع فترة وجوده الاول في مصر (في مصر ، وجدت نفسي وقد تحررت من قيود حضارة مزعجة . كانت الاحلام تملأ رأسي . . ورأيتنى أؤسس دينا ، وأزحف على آسيا وأنا امتطى فيلا وعلى رأسي عملة وفى يدى القرآن الجديد الذى كنت سأؤلفه ليلائم حاجياتى . . وكنت سأجمع فى مشروعاتى كل خبرات العالمين ، وأسخر لمنفعتى منرح التاريخ كله . . لقد كانت الفترة التى قضيتها فى مصر أجمل فترات حياتى لأنها كانت أحفلها بالاحلام) بونابرت فى مصر لكرستوفر هيرولد ص ٩ ف . (١) .

وهو سياق لم تحققه الايام خاصة فيما يتصل بالعقيدة التى كانت راسخة رسوخا يفوق بونابرتة وكل محاولاته ، ولم تتعد مشروعاته فى هذا الشأن الامانى .

أما الجبرتي ، فان الذى راح يسجل (يومياته) ليس أحلامه الخاصة ، وانما كان صوت مجتمع كامل ، ذلك ، لانه لا يمكن اعتبار هذه (اليوميات) كتابات فردية أو فضفاضة بغرض ازجاء الوقت أو التكريس لهدف ذاتى بأية حال . فالمعروف أن النتاج الفكرى أو التاريخى للمؤرخين

أعمال فردية في وقت تظل فيه هناك علاقة أكيدة قائمة بين الفرد والجماعة .

ومن هنا ، يمكن اعتبار (العجائب) أكثر صدقا وعفوية من (البريد) ، أو على الأقل أكثر صدقا في التعبير عن روح الجماعة أكثر من غيره .

وهذا يصل بنا الى دافع آخر . . فالمنهجية التي كتب بها الجبرتي (يومياته) انما كانت ترتدى ، ضمن ما ترتدى ، زى المؤرخين السابقين عليه في العصر العثماني ، يبدأ تاريخه بمقدمة ثم يلهم المامة سريعة بتاريخ مصر — على عادة مؤرخي هذه الحقبة — حتى العصر العثماني ، ثم يتدرج منه الى أواخر المائة الحادية عشرة ، وان يكن تاريخه الفعلي يبدأ عام ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨ م الى غير ذلك حتى يصل الى الحملة الفرنسية فيقسم كتابه الى اجزاء ويخصص الجزء الثالث منه الى الحملة حتى ينتهي من تدوين هذا الجزء الثالث عام ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦ م .

أما نابليون ، فان اختلاف المنهج والقصد حتم عليه أن يجاوز المنطق التاريخي في اثبات الحوادث وتسجيلها ، بل وراح يجنح الى المبالغة ، كما هو الحال في مناسبة مثل (وفاء النيل) ، ففي حين يلاحظ لهفة نابليون — القائد — في تأكيد حماسة الشعب بما يعادل لهفته في تحقيق أحلامه لاستتباب الأمر له بمصر ، فراح يذكر في صحيفته أنه حين

عاد الى الازبكية بعد هذا الاحتفال فقد تبعه جمهور ضخم
منشد أناشيد المديح في وقت يفكر فيه الجبرتي — المؤرخ —
ان أهل البلد (لم يخرج منهم أحد تلك الليلة) (ج ٣
العجائب ص ١٤ — ١٥) .

لقد كانت الدوافع التي كمنت وراء الاختلاف بين نظرة
الجبرتي ونظرة سلفه ، أن الاول جهد ليسجل التاريخ من
وجهة نظر مؤرخ وشاهد عيان مسلم أثناء اغارة الفرنسيين
على بلاده في وقت شغل فيه بونابرت كل الشغل بتحويل
المثل الأعلى للحرية والمساواة وما الى ذلك من شعارات
الثورة الفرنسية قبل ذلك بسنوات قلائل الى السبيل الذي
تستلزمه شهوته للفوز بالقوة والسلطان .

مصادر ومراجع القسم الأول :

— عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، عبد الرحمن الجبرتي ، أربعة أجزاء ، طبعة بولاق ، بدون تاريخ .

— مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين ، طبعة لجنة البيان العربي ، مجلد واحد ، تحقيق حسن جومر وعمر الدسوقي ، القاهرة ٦٩ .

— أخبار أهل القرن الثالث عشر (مخطوطة) دار الكتب المصرية تحت (طلعت ، ٢١٤٨١) .

— بونابرت في مصر ، كرستوفر هيرولد ، ترجمة فؤاد اندراوس ، دار الكتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ٦٧ ص ٢٥٦ .

— نظرية البنائية ، د . صلاح فضل ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٠ .

— عصر البنائية من ليفي ستراوس الى فوكو . اديب كيرزويل ، ترجمة د . جابر عصفور ، سلسلة (آفاق) عن دار آفاق عربية ، ١٩٨٥ ، بغداد .

— تاريخ الفكر المصرى الحديث ، د . لويس عوض ،
دار الهلال ، القاهرة ط ٣ بدون تاريخ ، جزآن .

— بحوث ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
٢٣/١٦ ابويل ٧٤ بمقر الجمعية بالقاهرة .

— العدالة والحرية فى فجر النهضة العربية ، د .
عزت قرنى ، عالم المعرفة ٣٠ ، يونيو ١٩٨٠ ، الكويت .

— التداخل الحضارى ، لسان حال الرابطة الدولية
لدراسات التداخل الحضارى ، الصادر عن بروكهاير ،
بوخوم ١٩٨٠ .

Courier de L'Egypte — موجودة بدار الكتب المصرية
تحت أرقام : N. 1.3.6.11.14.

— A.E. Crouchley, The Economic development
of Modern Egypt (London, 1938).

— Brecht in Agypten, Dr. Magdi Youssef.
Studienverlaq, Dr. J. Brockmeyer, Bacheme
1970.

— Jones, M. Dr. The First French and Al-
Jabarti H.D.

القسم الثاني

الجبرتي ومقتل كليبر

لا يمكن التعرف على خصائص عصر الجبرتي دون تفهم العصر الذي سبقه ، على أساس ان مجموعة الخصائص والتغيرات التي حدثت في هذا العصر — السابق — هي التي أنتجت بنية زمنية تالية(*) .

وعبورا فوق بنى زمنية كثيرة ، نستطيع ان نتخيل خطأ متصلا يبدأ بالرمز (١) قبل مجيء الحملة الفرنسية ، ويمتد الى (ج) فترة مجيء الوالى محمد على ، مارا بالفترة الحاسمة من تاريخنا فترة مجيء بونابرت ورحيله الى فرنسا تاركا كليبر بدلا منه .

وهنا ، بالضبط ، نتوقف عند الرمز الوسيط ، لننتعرف ، خلال الرؤية الحضارية المقارنة ، علاقة عبد الرحمن الجبرتي ، العالم السلفي ، ابن القرن الثامن عشر ، بكبير القائد الفرنسى المتفطرس ، ابن الثورة الفرنسية ومبادئها وشخصيتها الحقيقية فى هذه الفترة المبكرة ..

(*) انظر التمهيد في بداية الكتاب .

ونصطدم بأسئلة كثيرة طرحنا بعضها آنفاً قبل أن نفرغ
الى موضوعنا :

— الى أى مدى كان يمكن أن تتطور الطبقة الجديدة
من العلماء والأعيان لو لم تأت الحملة الفرنسية الى مصر ؟

— والى أى مدى كان التغيير الجديد دافعا للجبرتى ،
أهم رموز هذه الفترة ، لتجاوز الانبهار الى ما وراءه ؟

— وكيف حددت ممارسات الحملة الارهاصات الاولى
لصورة الغرب فى عيون الشرق ؟

ويكفينا بيتر جران فى مقدسته للطبعة العربية لكتابه
(الجذور الاسلامية للرأسمالية ، بصر ١٧٦٠ — ١٨٤٠)
والذى ترجم أخيرا (الفكر ١٩٩٣) . يكفينا الرد على مثل
هذه التساؤلات ، فيقول : « لقد أضر الهجوم الفرنسى
على مصر بالطبقات الوسطى ، وبالثقافة العقلانية
التي كانت تفرزها . ولاشك أن التأثير الفرنسى عمل على
تعزيز قرار الحكام المصريين اللاحقين كى يتحالفوا مع
الاجانب ، وفى الحدود التي يريدون فيها قتل الصفوة التقنية
المحرية محليا ، وفى ظل الرعاية الاجنبية . ولم تكن أوروبا
فى القرن الثامن عشر متقدمة فى الطب أو العلم بشكل مثير
.. (و) .. أما الخلافات الادبية ، أو التأثير الأدبى ، فهو
أن المنافسة بين الرأسماليات قد أضرت بمصر ، وتركتها
بلدا أكثر فاكثرا تخلفا وتبعية للخارج ، وكان من نتائج هذا

أن ملاك الاراضى بدأوا ينتجون للسوق الاجنبى باعتباره
أكثر ربحية من السوق المحلى .

وعلى ذلك يبرهن جران على وهم الاعتقاد السائد من
أن مصر فى القرن الثامن عشر — قبل مجيء الفرنسيين —
كانت فى حالة انحطاط ثقافى وأن أوروبا هى التى ملأت
البلاد بالعلم والتكنولوجيا .

الأكثر من هذا ، أن جران لا يلبث فى الفصل الثالث
أن يكون أكثر تحديدا ، حين يقرر بصراحة ، أنه ظهرت فى
مصر بين عامى ١٧٦٠ — ١٧٩٠ سحنة ثقافية جديدة
بالملاحظة ، احتلت مكانتها ، وأن كانت لم تدرس على نطاق
واسع ، فسلسلة الموضوعات وعدد المشاركين فيها ،
ويقظة الوعى النقدى فى ميدان العلم ، والذى اختير بطريقة
محددة ، كل ذلك يتطلب بالضرورة تفسيراً جديداً لتطور
الثقافة الحديثة فى مصر . ولاشك أن الازدهار التجارى فى
مصر فى القرن الثامن عشر أطلق حركة جديدة تتسم بالحياة
فى الحياة الدينية ، والتى بدورها أثمرت ثقافة وليدة ..

والحاصل أن العلماء فى مصر زمن مجيء الحملة ، كانوا
عند مستوى ثقافى معين ، سمح لهم بعدم السقوط فى بؤرة
الاعجاب ، وإنما كان الانبهار فقط لغرابة القادمين وتطور
آلاتهم وطرق مناهجهم ، وهو ما يفسر كيف أن العلماء لم
يستطيعوا اتخاذ موقف حاد — خاصة كبار العلماء — ضد
الحملة ، كما لم تكن لديهم القدرة على الفصل بين مجالات

التعاون الثقافي والحضارى ومجالات التعاون السياسى ،
بل ان مثل هذا الفصل كان مستحيلا فى ظروف كظروف مصر
« وطبيعة الحملة التى قادها نابليون الى مصر ، وهى حملة
عسكرية علمية . اما الجماهير التى كانت على حظ ضئيل
من العلم والوعى الثقافى ، فكانت رافضة للوجود الفرنسى »
من حيث هو وجود استعمارى وعقيدى فى الاساس
الاول ..

وهذا كله — اذن — يفسر (حالة) العلماء ابان مجيء
الحملة الفرنسية الى مصر .

ولا يمكن فهم هذه (الحالة) دون ان نمر بهرحطين :

— مرحلة التقييم العام للبنية الكلية .

— مرحلة فهم الوحدة الداخلية بتلمس (النموذج)
والمقارنة ..

لم تخل مرحلة التقييم العام للحملة الفرنسية — خاصة
بعد مقتل كليبر — من انبهار كان يتأرجح دائما حتى كان
يصل فى بعض الاحيان الى التعاطف مع المحتل ، وهو
تعاطف لا يمكن ان نرجعه لغفلة العلماء ، وانما الى خداعهم
من قبل القوى الاخرى ، على ان المهم هنا ، ان هذا الانبهار
فى صعوده الى اقصى طرف لم يكن ليصل — كما هو شائع
فى اغلب كتب التاريخ الحديث — الى الاعجاب .

الانبهار والاعجاب

ورغم بدهة تعريف لفظة (الانبهار) ، فان اعادة تحديد الالفاظ والتفرقة بين لفظ وآخر ، يظل مدخلنا الحقيقي لفهم المعانى والدلالات .

يعرف المعجم الوسيط الانبهار بالادهاش ، وبهر الشئ فلانا ، أى ، أدشه وحيره ، فتضاف الى الدهشة الحيرة . . أما الاعجاب فقد عرف بالميل ، وأعجب الشئ فلانا ، أى ، عجب منه وسر به ، فهو معجب ، ويأتى فى تعريف الاعجاب كذلك جملة من المعانى ، منها ، الاعجاب والسرور فى آن واحد ، فالاعجاب يظل الى الميل أقرب منه الى الحيرة والاعجاب يستحوذ على صاحبه تماما حتى لا يستطيع الفرار منه ، فيسقط أسيرا له ، أما أقصى تأثير للانبهار ، فهو أن (يغلب) صاحبه « بتعريف المعجم الوسيط » . بمعنى أن يكون مغلوبا على أمره .

وهو ما يعود بنا الى ما سلف من أن خطورة الانبهار أن يسقط بصاحبه تحت تأثير البهر به وقتيا ، أما الاعجاب فهو سقوط أبدي لا قيام منه بعدها . .

وسوف نجد الجبرتى ، وهو نموذج لعلماء الدين الكبار ، فان نظرتهم لم تخرج فى كثير عن الانبهار ، غير أن ذلك قليلا ما كان يخدعه ، فيمنح أحكاما غير صائبة ، وهو

ما يعود الى ضعف الوعي السياسى لديه و (حجاب)
المعاصرة فى بعض الاحيان ، لكنه ، بوجه عام كان واقفا
عند حدود الانبهار فقط .

وهذا الموقف يعود الى نشأة الجبرتى نفسه قبل مجيء
الفرنسيين فى القرن الثامن عشر . درس الجبرتى كأقرانه
— كالشيخ محمد الصبان — الحديث وأطلع على المتون
الاساسية لعدد من الاساتذة المعاصرين له ، كما برز —
كذلك فى علوم اللغة ، وترجمته لسيرته تشير الى أنه درس
العلم ثم علم الهيئة والميقات وعلم الفلك والهندسة ، وعلم
قياس الوقت ، كما قرأ متون الاعمال المشهورة فى أواخر
العصر الوسيط، أيضا كان من أساتذته : الزيدى الموسوعى
الشهير ، ويذكر جران أن الجبرتى كان من طلبة الشيخ
الصبان ، لذا كان يشبهه الى حد كبير ، اذ نال شهادة
الطريقة الشاذلية التى تؤكد على تقدمه الروحى ، كما قرر
أن يقوم بجولة فى ربوع مصر فيلم بالاضرحة والمقابر فى
وطنه ، أضف الى ذلك ان والد الجبرتى نفسه — حسن
الجبرتى — كان ممن يشهد لهم بالعلم بالمعنى الحديث .
وهو ما يشير الى أن مثل هذا النمط من التعليم كان لأبد
أن يفسر كثيرا من الظواهر ذات الاهمية الفلسفية والادبية
كما يهيبء صاحبه لتفهم الاحداث وان انبهر بها . وقد بلغ
الجبرتى من العلم الى درجة وصف البعض تاريخه بأنه
العمل الممتاز والمتدرج فى حركة الاصلاح « الصوفى خلال

القرن الثامن عشر الميلادى » . واذا تعمقنا فى التحليل ،
وتعاطفنا مع هذا العمل ، سنرى أنه يثوق ، حتى ، كتاب
أستاذة (الزبيدى) .

المهم فى ذلك كله أن الجبرى كان نموذجا لعالم الدين
الواعى ، الدارس دينيا وعلميا ، والذي كان يتمتع بمكانة
فكرية واجتماعية كبيرة ، ومع هذا ، فإن رصد هذه الفترة ،
ترينا أنه سقط صريع الاتهام الذى أوصله الى درجة من
التخبط ، فى الفترة التى رحل فيها نابليون عن مصر ،
واغتال سليمان الحلبى الجنرال كليبر .

تحدثنا مصادر هذه الفترة — وما أكثرها — أن كليبر
كان أكثر قسوة من بوناپرت ، وأكثر تجهما ، وأقل (تباسطا)
مع العلماء أو الجلساء ، وترجم أوصاف المصريين لزعماء
الحملة وعيهم فى هذا الصدد ، إذ بينما أطلقوا على قائد
فرنسى (بوناپرت الكبير) أطلقوا على الآخر (كليبر الطويل)
وهو ما عاينه الجبرى بنفسه ، حين ذهب مع العلماء
لمقابلة كليبر لأول مرة بعد سفر سلفه .

وقد حال موقف الجبرى من التثب أكثر لطبيعة حكم
كليبر الذى ازداد قسوة مع الوقت ، فكليبر لم يكن ليخفل
بالاسلام كثيرا ، ولم تكن منشوراته تتضمن « الدعاية
الإسلامية » الا نادرا ، كما كان أكثر قسوة على المصريين
من سلفه ، خاصة فى ثوراتهم التى اشتعلت بعنف فى

عهده ، كما زاد هزيمته للعثمانيين والانتجليز من عنفه ضد أهل البلاد ، خاصة العلماء ، فضلا عن الضرائب الباهظة .

وقد زاد موقف الفرنسيين عنفا عقب قتل كليبر ، اذ تفكر المصادر — على عكس ما يتردد عن عدالة الفرنسيين ورباطة جأشهم حينئذ — ان الجنود الفرنسيين انتقموا من الناس العاديين ، فراحوا يقتلون كل ما يقابلونه من الرجال والاطفال ، كذلك أمر القائد مينو بفرض غرامة جديدة على الناس قدرها أربعة ملايين فرنك ، ثم مليوناً آخر ، وأراد البعض الهجرة من العاصمة ، فمنعهم الفرنسيون ، وامنعوا في الاساءة للمصريين فترات طويلة . فضلا عن المحاكمة السورية — في تقديرنا — لقاتل كليبر .

لقد كان على الجبرتي ان يكون أكثر وعياً مع أصحاب هذه الحضارة العنيفة في تعاملهم اليومي مع الناس ، فلم يكن العنف طارئاً لديهم خاصة عقب قتل قائدهم — كليبر — وإنما استمر لفترة طويلة ، واتخذ اشكالا شتى .

ويشـير تقييم موقف الجبرتي بوجه عام في كتابيه (عجائب الآثار — مظهر التقديس ، وخاصة ، انه كتبها بالشكل النهائي بعد خروج الفرنسيين من مصر) ، الى أن موقفه من الفرنسيين لم يتعد الاتيهار بهم ، وفي أحسن الحالات : التعاطف ، وقد بالغ في نقد الفرنسيين في كتابه الآخر (مظهر التقديس) ، اذ كان يكتب أصلاً للوزير

التركى أو الاتراك وفى عصرهم ، غير ان موقفه بالانبهار فى (العجائب) لا تشويه شائبة ، ويلاحظ البعض انه بينما تذكر محاكمة سليمان الحلبي قاتل الجنرال كليبر فى (مظهر التقديس) دون اطالة ، فانها مليئة بالاحساس بالعدل عند الفرنسيين فى ست عشرة صفحة فى (العجائب) .

ونحن لا نذهب مع Crabbs حين يرى ان موقف الجبرتى من محاكمة سليمان الحلبي ، كان موقف المعجب ، ويعمل ذلك بان طبيعة المحاكمة التى عقدت ، منحت هذا الحس ، ذلك لان موقف الجبرتى من عدالة (المحاكمة) هنا لم تتعد درجة الانبهار أو الدهشة لهذا المظهر الذى حرص عليه الفرنسيون ، فكانت دهشته بالعدالة التى أعلنت ، أكثر من الاعجاب الذى أثير حسبا يردد هذا المؤرخ .

ويترتب على ذلك الخطأ الآخر الذى وقع فيه أيضا من أن الجبرتى ظل منعزلا عن الفرنسيين خلال أغلب سنوات الاحتلال الثلاث ، وانتقد العلماء الذين تدنوا وخدموا سادتهم الجدد . . (و) . . ومع اغتيال كليبر شرع الجبرتى يغير أفكاره ، فلم يكن تغيير الأفكار هنا من قبيل الاعجاب لدرجة (التعاون) مع المحتل — خاصة انه كان عضوا فى أول ديوان بعد مقتل كليبر — وانما تمشيا مع عدالة الفرنسيين المعلنة ، وفى حين أننا لانستطيع أن نزيد موقف الجبرتى عن الانبهار والتعاطف ، فنحن لا نغفیه من

الاعجاب — وان بدا حذرا — فى بعض الاحيان ، خاصة ،
وقد كتب كلا من « العجائب » و « خروج الفرنسيين من
مصر » فى زمن عادت فيه همجة المهالك والعثمانيين .

وباختصار ، لم تكن لفظة (العدل) التى ردها الجبرتى
عقب محاكمة كليبر غير منطوق ، قصد به المقارنة بين
العدل عند الفرنسيين ، وان يكن سوريا ، والعدل عند
غيرهم ، وان مارس ظلما بينا واضطرابا فادحا . . وهى
درجة من درجات النضح لديه ظهرت أكثر فيما بعد حين
انفتحت مصر على فترة الفوضى (١٨٠١ — ١٨٠٥) أية
درجة من درجات العدل والأمان .

ولكراس هنا وجهة نظر جديدة بالتسجيل فى موقف
الجبرتى المتحول أكثر الى جانب الفرنسيين خاصة بعد
مقتل كليبر ، فهو يرى أن « عجائب الآثار » كانت نتاج
ادراكه المؤخر وانعكاسه ، أى ، أنه فى (العجائب) كان
أكثر نضجا فى مقارنة حكم الفرنسيين بمن جاء بعدهم
بعدها أجلا عن مصر .

غير ان انبهاره او تعاطفه أو — حتى — اعجابه الحذر،
أكد على حقيقة هامة ، هى ، ان الحكم على قاتل كليبر
(سليمان الطبلى) كان يعوزه الكثير من الوعى ، خاصة

أن (المحاكمة) الصورية لم تعقد الا بقصد واحد مسبق ،
وهو ، الحكم البشع بالتعذيب والوضع المزر على (الخازوق)
تبل ان تستهدف العدل بحق .
وهو ما نتمهل عنده ، أكثر ..

صور من المقارنة

سوف ننتقل الآن من التحليل الرأسى الى التحليل الأفقى فى محاولة لفهم — أكثر — موقف المؤرخ المصرى من قوى الاحتلال فى تلك الفترة سواء اثناء اغتيال كليبر أو بعده .

وترينا صور المقارنة .. كيف لم يستطع الجبرتى — على ما فيه من فطنة وخبرة — أن يمثل الوعى الذاتى أو الجمعى أو يفهم روح العصر فهما تاما ، سالكين فى ذلك مسلكا يغاير الفصل السابق فى محاولة فهم دلالة الاختلاف الزمنى أو التباين اللغوى أو تغاير التقاليد والعادات وما الى ذلك .

سوف يكون نهجنا الآن الفهم الموضوعى من خلال مقارنة عدد من الوثائق الفرنسية والعربية ..

وسوف نختار من النصوص والوثائق ما له صلة مباشرة بالمقارنة الحضارية بشكل مباشر ، تاركين صورة من الوثائق فى (الملحق) المرفق بهذه الدراسة .

فلنتمهل الآن أكثر عند النماذج ودلالاتها :

- (أ) حقيقة سليمان الحلبي
- (ب) وحشية القتل والتعذيب
- (ج) خدعة المحاكمة
- (د) عدم فهم الواقع

(أ) حقيقة سليمان الحلبي :

من تقرير الجنرال مينو :

« .. ان هذا الشاب المتحمس أظهر وقت القصاص
وخلال تعذيبه شجاعة ورباطة جأش يدلان على ارتياح
ضميره لأحسن عمل يستحق الثناء والتجديد والثقة بأنه
سينال حسن الجزاء الذي ينتظر الشهداء » .

من تقرير الجنرال بارون ديفرنوا :

« .. كان سليمان رابط الجأش يبدو عليه الرضا
بالحزن الذي ظهر على القوات الفرنسية » .

.. (و) ..

« طلب ماء .. فشرب حتى آخر نقطة فيه .. ان
سليمان راح يشرب الماء بكثرة عسى أن يموت مختنقا

تخفيفا للآلام التى يشربها .. وكان هذا المشهد يدفعه الى
الابتسام بطريقة ساخرة ، الأمر الذى كان يضاعف
غیظنا .

من مستندات كتاب (لغة الشعب) الذى أصدره
الفرنسيون :

« جاوب سليمان انه .. حضر حتى يغازى فى الكفرة ،
وكان يبدى الارتياح الشديد » .

ومن كورييه دى لیجییت — الطبعة الاصلية :

رقم ٧١ فى ٢٧ بریال — السنة الثامنة للجمهورية :

« القيادة العامة بالقاهرة فى ٢٦ بریال لسنة ٨ من
الجنرال عبد . ج مینو القائد العام لجیش الشرق
بالنیابة الى الجیش .

لقد وقع اعتداء أثیم علیکم ، وأغتیل من بینکم جنرال
كنتم تحبونہ وتحرمونه . اقترف ذلك عدو (يقصد العثمانيين
بعد هزیمتهم) لا يستحق الا احتقار ومقت العالم أجمع .
ولما لم یتمکن عدوكم من قهرکم تحت قيادة كلیبر الشجاع ،
لجأ الى حيلة ننیئة وارسل اليه خلصة أحد المجرمین
لاغتیاله » .

وجاء في يوميات الجبرتي (عجائب الآثار ٠٠) ج ٣ ،
ص ١٢٢ (*)

« قبل أن يورد المنشورات التي طبعها الفرنسيون ،
ذاكرين فيها ما حدث ، راح يعلق قائلا عن حقيقة سليمان
الطبي في مفهومه :

» وقد تجارى على كبيرهم ويعسـوبهم محل آفاقي
أهوج « .

وتنتهى الروايات التى كتبت ابان اغتيال كبير واعدام
سليمان الطبي ورفاقه ، وتركنا حائرين .

ان المصادر الفرنسية تشير فى أغلبها — عدا الجريدة
الرسمية — ان القاتل وراءه عزم نبيل أو — على الأقل —
عقيدة قوية دفعت به الى ذلك ، فالجنرال مينو (الذى
سيصبح خليفة لكبير) يؤكد أن سليمان يبدو عليه الرضا
للحالة التى انتهت اليها قائد الفرنسيين ، ومن ثم ، الارتياح
للحزن الذى خلفته الجريمة لدى القوات الفرنسية ، وآخر

(*) عجائب الآثار ، السابق ، ص ١٢١ ، ١٢٢ ، وهو يبدأ
حديثه عن قضية اغتيال كبير فى (سنة خمس عشرة ومائتين والـف ، فى
يوم السبت) متعجبا مما يحدث مسيا أباه (نادرة عجيبة) مما يوحى
بأن ما سوف يحدث من قتل كبير غير مبرر قط .

يؤكد ان سليمان جاء ليجاهد في سبيل ملته ، وتبدى كثير من الروايات ان شاهدهى عيان من الجنود الفرنسيين رغم غضبهم الا أنهم - فيما يبدو - كانوا متفهمين لموقف سليمان الحلبى ، ومع ذلك ، فان الجبرتى يصف قاتل قائد المستعمرين بانه (آفاقى أهوج) وهو وصف يدل على ان الشيخ المؤرخ لم يكن - رغم وعيه - متفهما للرأى العام ، ولا - حتى - متفهما لطبيعة الهدف الذى جاء من أجله سليمان الحلبى .

لم يكن ليهتم الجبرتى بهذا القاتل (عند الفرنسيين) ، او الغازى والمجاهد (عند المسلمين) ومن ثم ، فان فعلته لم تزد عنده على فعلة آفاق لا يعرف ماذا يفعل ، فيقفجنباً الى جنب مع المدعى العمومى الفرنسى حين طالب بأقصى القصاص للمتهم ووصف فكره (بالهلاوس) (*) .

لقد كان موقف الجبرتى من الفرنسيين حتى ذلك الوقت يشويه الغموض - كما يلاحظ لويس عوض - لكنه ، فيما يبدو ، كان أقرب الى موقف الانبهار بحضارة الفرنسيين الوافدة ، ومن ثم ، فان موقفه حينئذ كان يدل «على أنه لم يكن

(*) المستندات الخاصة التى صدرت في مصر عقب مقتل كبير ، وقد طبعت فى كتاب بثلاث لغات ، العربية منها بعنوان (لغة الشعب) وكلها بعنوان (مجمع التحريرات المتعلقة الى ما جرى بأعلام ومحاكمة سليمان الحلبى قاتل صارى عسكر العالم الكبير) وقد نشر بعضها وعلق عليها فيما بعد د. أحمد حسين الصاوى في جريدة (أخبار الأدب) من تاريخ ٢٠ فبراير ١٩٦٤ .

له موقف معين معاد للحكام الفرنسيين أكثر من سواه من العلماء سواء في الفكر أو الحياة . ومن ثم ، فإن موقفه بالاقتراب من العهد الجديد وآلياته كانت تبعد به عن تفهم أى موقف دينى أو اجتماعى يمكن أن يفسر به موقف سليمان الحلبى ، فراح يتهاى للعب دور فى الديوان الجديد الذى سيشكل بعد رحيل كليبر — وقد كان هو بالفعل أحد أعضائه — وراح يلعب دورا فى تسجيل الأحداث لافهمها كمؤرخ تحليلى « ليس بروح الوطنى المتهب الرافض لكل ما حوله من افكار وأفعال » .

فى هذه الحالة ، كان من المستحيل على الجبرى أن يتفهم دوافع سليمان الحلبى ، ويلمح جاك كرابس بهذا حين يقول : « وفيما يتعلق بموقف الجبرى ، فإن السيرة الذاتية لسليمان الحلبى قاتل الجنرال كليبر سوف لا تكون ذات فائدة تذكر للمؤرخ ما لم تكشف هذه السيرة عن شىء عن الموقف العام للمجتمع المصرى نحو الاحتلال الفرنسى » .

المفارقة هنا ، ان الجبرى ، حرص فى تاريخه على أن يكون قريبا ، فى كثير من الحالات ، من التفاصيل ، لكنه لم يستخدمها لفهم دوافع الحلبى ، ومن ثم ، فإن هذا يطرح تساؤلات كثيرة على المؤرخ المعاصر :

— هل كان الجبرى يتهاى — بالفعل — ليلعب دورا إيجابيا مع الفرنسيين بعد مقتل كليبر ؟

— وهل كان تحول خليفته — مينو — الى الاسلام
توطئة لهدم حاجز المعارضة ، وقد كان ذلك مهيا له منذ فترة
مبكرة ، وهو ما رأيناه في هجومه على الزعر والحرافيش
الذين كانوا قد قاموا بالثورة ضد الفرنسيين ؟

لنترك الواقع السياسى والدينى لنحاول تفسير موقف
الجبرى من سليمان الحلبى من الجانب الاجتماعى ..

تشير مصادر هذه الفترة الى ان العلماء الكبار كانوا
أكثر حظوة عند الفرنسيين من غيرهم من علماء الصف
الثانى أو الثالث حتى أننا نجد فى مراسلات نابليون أن آخر
وصية تركها لكبير قبل رحيله الى فرنسا جاءت على هذا
النحو « ان من يكسب ثقة كبار المشايخ فى القاهرة يكسب
ثقة الشعب المصر » ، كما أن منشورات نابليون — فى
أكثرها — كانت لهؤلاء الشيوخ الكبار سواء باثراهم فى
الديوان أو باتخاذهم مستشارين — فى الظاهر له — ،
أضف الى هذا انه حرص على أن تظل مكانتهم الاجتماعية
وأملأهم الكثيرة بعيدا عن المساس أو الخطر ..

فاذا تذكرنا أن الجبرى كان أحد هؤلاء العلماء الكبار
لتفهمنا هذا التناقض الذى كان واقعا اجتماعيا بينه وبين
رجال الدين أو المشايخ من نوى الاملاك الضعيفة أو
المعدمين أو ممن كانوا يعيشون بالجراية والمبيت فى الأزهر ،
وقد كان سليمان الحلبى أحد هؤلاء الآخرين ، اذ ظل يدرس

فى الأزهر لمدة ثلاث سنوات وهو رقيق الحال لا يكاد يملك قوت يومه الا من خلال الأزهر ، وحتى بعد أن ترك الأزهر وعاد الى بلده فى بر الشام ، كان لا يأكل الا مما تعلمه من الأزهر ، اذ عمل (كاتباً) لسمعته وتكوينه الأزهرى .

فى أثناء محاكمة سليمان الطبى ، نعثر على عديد من المبررات التى يحاول ان يقدمها للمحكمة ، وهى فى حقيقتها مبررات اجتماعية ، وان لم تخل من دافع عقيدى غير أن المبرر الاجتماعى هنا يمثل العامل الأول وراء تصرف الطبى .

بيد أننا لا ننفى الجانب الدينى ، اذ كان أول ما قاله لهيئة المحكمة فى الساعات الاولى انه جاء ليفازى (يجاهد) فى سبيل الله ، غير أن الجهاد لا يكتفى بدلالته فى مجتمع كان الافراد ينقسمون فيه ، بالنسبة الى العلماء ، الى علماء من الطبقة الاولى — كما أشرنا — وعلماء أقل فى الاتصالات الاجتماعية ، والدخل المادى ، وقد كان سليمان الطبى من هذه الطبقة الفقيرة التى تصدت للاحتلال بالثورة أكثر من مرة ، وأبداء الغضب مرات .

نمضى فى الحوار الى خطوه أبعد ، فنقول ، انه ردد أثناء محاكمته — وخلال مصادر عديدة — أنه ذهب الى حاكم القدس ليشكو اليه حاكم حلب لرفع الظلم الذى يوقعه هذا الحاكم على أبيه فى الشام ، تقول الرواية فى أثناء

المحاكمة : « ان سليمان شكا الى أحمد آغا من جملة أغوات الوزير التركي متسلم الأب الذي كان يظلم أباه الذي يسمى الحاج محمد أمين ، بباع سمن وحططوه غرامة زائدة » فوعده الوزير برفع الظلم عن أبيه على أن يذهب لقتل سارى عسكر ، وفى مرة أخرى قال ان العثمانيين أرسلوا الى حلب فى طلب شخص بقتل سارى عسكر وقيل « ان من يقدر على هذه المادة يقدموه فى الوجاقات ويعطوه دراهم ولاجل هذا هو تقدم » .

وكل الروايات تجمع على ان العثمانيين وعدوه بالمساعدة سواء فى رفع الظلم عن أبيه ، أو دفع ما يستحق وما يريد لرفع الحاجة عنه بشرط ان يذهب لقتل سارى عسكر ..

وهذه الروايات وان كانت لا تقنع الذى يسمعها تماما ، فإنها تترك ظلالات تشير الى ان الجانب الاجتماعى كان حاضرا وراء محاولة سليمان الدموية ، ومع انه لا يعقل ان لا يذهب ليقتل مقابل أربعين قرشا أعطيت له ، أو يفعل فعلته — كما أشار لوييس عوض — من أجل ذهب الاتراك ، فمن المؤكد ان الواقع العربى كان يفرض نفسه على تلك الفئة البائسة من الشباب لما يعانونه هم وأهلهم من الفقر والحاجة ، ومصادر العصور العثمانى ، قبل مجيء الفرنسيين ، تؤكد ، على أن الظلم والفساد كانا طاغيين ، وقبلما نفتح كتابا لأحد أولئك المؤرخين دون أن نجد هذه

الظواهر تشكل القاسم المشترك لأغلبية الشباب المتعلم والأزهرى حينئذ(*) .

وهذا الواقع كان بعيدا دون شك عن الجبرتي ، الذي ظل محتفظا بأملاكه ، متمتعا بمكانة سياسية عالية في (ديوان) كليبر الجديد ، تشغله القضايا الحضارية وتأمل العصر أكثر من الآخرين ممن لا يجدون وقتا كبيرا للانشغال بقضايا العصر ، أو الاشتغال بمناصب شرفية أو سياسية ..

(ب) وحشية القتل والتعذيب

من تقرير الجنرال مينو :

« حكم عليه .. بحرق يده اليمنى وقطعها واجلاسها على الخازوق حتى يموت فوقه .. »

عاش أربع ساعات فوق الخازوق ولم يتأوه وسط هذه الآلام الشديدة التي يرتعد الإنسان لمجرد التفكير فيها .

(*) وعلى سبيل المثال انظر :

— (ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور) .

— أحمد شلبي عبد الغنى ، أوضح الاشارات تبين تولى حصر

القاهرة من الوزراء والباشوات) .

من تقرير الجنرال ديفرانوا :

« وكان من وقت آخر يطلب من الله ان ينزل عليه رحمته واحترقت يده تماما . ولما كان لا يفتأ يشتم الجلاذ ومساعديه والجيش الفرنسى كله ، بطح أرضا وشقق شرجه وأدخل فيه الخازوق وربطوا ساقيه وفخذه ويديه وجسمه ، وهنا صرخ صرخة واحدة . ورفع الخازوق وهو ثابت فوقه .. » .

من كوربيه دى ليجيت — الطبعة الاصلية

رقم ٧١ فى ٢٧ بريرال — السنة الثامنة للجمهورية :

نقرأ فى الحكم الذى صدر ان المحكمة الفرنسية « حكمت على سليمان الطبى بان يحرق معصم يده ، ثم يفرس فى مؤخرته وتد ليخترق أمعاءه ، ثم يترك وحيدا وبه الوتد الى ان تأتى الغربان والطيور الجارحة لتنهش جسده و .. » .

وفى (عجائب الجبرتى) ج ٣ ص ١٢٢

نقرأ « ثم انهم رتبوا صورة محاكمة على طريقتهم فى دعاوى القصاص وحكموا بقتل الثلاثة مع القاتل .. (و) .. وانقضت الحكومة على ذلك .. (و) .. رتبوا محاكمة واحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ثم .. »

والغريب حقا في مقارنة الروايات العربية بالفرنسية
لا نلاحظ أى غضب أو تحفظ لدى المؤرخ العربى من طريقة
القصاص ، في وقت نلحظه في الطرف الآخر ، الجانى ،
ان الروايات الفرنسية — عدا الرسمية منها — تبدى
وصفا محزنا ، اما الأوراق الرسمية فى الجريدة الفرنسية
فتبدى أحكاما أقل تعبيرا وأكثر تحفظا ، فى حين لانسمع
من الجبرى الا كلاما عن المحكمة والمحكمة والقصاص .

ان الجانى يبرر لضحيته عما جناه ، وفى تبريره يصطلم
بشجاعة سليمان العربى ، فلا يملك الا الاعجاب بها ، بل
ان الجنود الفرنسيين أنفسهم يشفقون عليه ، وتشير
مصادر هذه الفترة ان أحدهم ساعده على شرب جرعة ماء
كان يلح وهو على الخازوق فى طلبها .

ان تاريخ الجبرى يشى بما يشبه الاقتناع بالعدل ،
حين يحكم على ما حكم به الفرنسيون ، وهو عدل يقيس
به الواقع الظالم ، وهو قياس خاطيء ، فهو يقارن عدل
الفرنسيين بهذه الموته المبشعة « بأفعال العساكر الذين
يدعون الاسلام ويزعمون أنهم مجاهدون ، ولا يمكن هنا
الاقتناع بوجهة مثل هذا الراى .. » .

ان المؤرخ لا يقيس ظلما بظلم ، انما يقيس الظلم
بنموذج العدل الذى كثيرا ما يكون فى الاديان او فى ضمير
البشر ، ان احضار سليمان (وتكرار سؤاله) القصد منه
عقد محاكمة صورية للانتقام منه وليس القصاص العادل .

والملاحظة التي يجب ألا نغفلها هنا أن الجبرتي بعد أن
يثبت لتنفيذ الحكم يبدو كمن يكتب واجبا أو يقر بأمر واقع ،
ثم يشغل بالمنشورات التي (لازم ينطبعوا) — كما يأمروا
ويتعلقوا في المحلات — دون أن تتحرك فيه شعرة أمام
هذا الافتاء الشنيع الذي صدر فأحرقت أيدي الحلبي
« وبعده يتخوزق على الخاوزق لحين تأكل رمته الطير » .

أمر آخر أغفله الجبرتي ، فرغم أن (الخاوزق) كان
يستخدم — كما يبدو — في العصر المملوكي ، فإنه كان قد
أبطل تماها ، وحين جاءت الحملة الفرنسية لم يكن استخدام
(الخاوزق) شائعا ، ورغم ذلك أمرت المحكمة الفرنسية
باستخدامه دون أن يحتج المؤرخ في تأريخه ، رغم أنه
انتهى من تدوين هذا الجزء من (عجائب الآثار) بعد رحيل
الفرنسيين بكثير (عام ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٤ م) في حين أن قتل
سليمان الحلبي وخوزقته — كما تقول المصادر — كان قبل
ذلك بكثير (١٢١٥ / ١٨٠٩) ، أي بعد خروج الفرنسيين
من مصر بسنوات طويلة ، كان يمكن أن يكتب مالا يمكن
كتابته في حينها ، تبريرا بخشيتته على نفسه من
الفرنسيين .

وهذا يدل على موقف لا يمكن تفسيره من المؤرخ
العربي .

إن هذا الموقف يجعلنا نتساءل : إذا كان من مهمة
التاريخ فهم الواقع بهدف فهم الحاضر والاعداد للمستقبل ،

وطالما ان الجبرتي كان وشيك الخروج من العصور
الوسطى ، متقبلا لحضارة جديدة وعوالم شتى ، أليس
كان من المفروض ان يساعده هذا كله على فهم هذه البيئة
التي يكتب عنها (لاستلهم العبرة) ؟ ..

وهذا كله يجعلنا نعيد التساؤل !

لماذا كتب الجبرتي التاريخ ؟

وبشكل آخر :

كيف فهم التاريخ على هذا النحو ؟

وهو ما يصل بنا الى موضع آخر قريب منه ، لا يتعلق
بالتنفيذ ولكن بالشكل .

(ج) خدعة المحاكمة :

من مراسلات جيش الحملة . باريس . سنة ٩ للجمهورية

» حكم اللجنة العسكرية المشكلة بأمر الجنرال مينو
لمعاقبة قاتل كبير وشركائه .

اجتمعت اللجنة برئاسة الفريق رينيه ، وبعد تلاوتها
عليه مرسوم الجنرال مينو وضعته أمامه على مكتبه ، ثم
قرأ المقرر محضر التحقيق ومستندات اثبات التهمة ونفيها
في مواجهة المتهمين :

.... (ز) .. وبعد انتهاء القراءة أمر الرئيس باستدعاء المذنبين فأضحوا أمام اللجنة بدون قيود ومعهم الدفاع . وكانت أبواب القاعة مفتوحة والجلسة علنية / وأخذت اللجنة الاصوات .. الخ « ..

من كوربيه دي ليجيت — الطبعة الاصلية رقم ٧١ في
بريرال السنة ٨ للجمهورية :

« باسم الشعب الفرنسى / فى يوم ٢٧ بريرال من السنة الثامنة للجمهورية فى المنزل الذى يشغله الجنرال رينيه ، اجتمع بناء على قرار الجنرال مينو قائد جيش الشرق بالنيابة والذى صدر البارحة ، اجتمع .. (و) .. / عندما اجتمعت اللجنة حضر الرئيس الجنرال رينيه أمامه على المكتب نسخة من قرار الجنرال مينو سالف الذكر وتلاه على الحاضرين / ثم تلا محضر الاعلام وتليت الاوراق ومستندات الاثبات والنفى ضد المتهمين (..) » .

ويستطرد الحكم ليظهر لنا أن الفرنسيين أقاموا محكمة عادلة القيت فيها الاسئلة القانونية على المتهمين واجابوا عليها ، ثم سألهم الرئيس اذا كان لديهم أقوال أخرى للدفاع وترافع عنهم محامو المتهمين اداريا ورفعت اللجنة للمداولة .. الى غير ذلك مما يوهم بالمحاكمة عادلة بينما كان الأمر مختلف .

ونقرأ في (عجائب الآثار ..) ج ٣ ص ١٢٢/١٤١ :

« احضروه وسألوه عن اسمه وعمره و .. ومحل اقامته .. (و) .. ويعد صور محاكمة عادلة انقضت الحكومة على ذلك والفوا في شأن ذلك أوراقا .. لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة ولما فيها من الاعتبار وضبط الاحكام .. (و) .. ثم ان القضاء حطوا خط يدهم باسمائهم مرفقة كاتم السر .. فحالا قضوا أمرهم .. الخ .. » .

ومن مقارنة الروايات الفرنسية بتدوين الجبرتي نكتشف أنهم استطاعوا — بالفعل — ايهام الجبرتي بعدالة المحاكمة ، وهى عدالة لم يقصد بها الا عدالة رجال الغرب فقط ، وبغض النظر عن جناية القتل ، فان كل مظاهر المحاكمة انما كانت صورية القصد منها التأثير فى المصريين وخداعهم خاصة ، أنهم بعد ان صدقوا فى اجراءات المحاكمة ان المصريين ليس لديهم أية نية فى الاشتراك فى هذه المؤامرة ، وان !عثمانيين كانوا وراءها ، كان من مصلحتهم الا يثيروا المصرية ، ويعقدوا فى الظاهر فقط محاكمة عادلة ، اذ كان كبير قبل رحيله قد فرض ضرائب عالية وارتكب جرائم كبيرة بعد أن أخذ ثور القاهرة الثانية حتى ٢٠ أبريل ، أى قبل اغتياله بأيام قليلة ، وهو اعتدال وضبط للنفس من جهة الفرنسيين ، اذ يعتقد عدد من المؤرخين المصريين ان الفرنسيين كانوا يستطيعون — كما قال عبد الرحمن الرافعى — ان يأخذوا كثيرا من الابرياء بجناية القتل ، لكنهم

لم يفعلوا ، فكانوا نموذجاً للعدل ومدعاة للاعجاب ، وهو ما رددته عدد آخر من الكتاب ، وان كان من الانصاف ان نشير هنا الى ان د . أحمد حسين الصاوى ، حين أشار الى خدعة المحاكمة التى انطلقت على البعض ، سرعان ما عقب فى الحلقة الأخيرة التى خصصها لنشر كتاب المحاكمة ، فقال فى شبه استنكار « يصدر الحكم الديمقراطى على الطريقة الفرنسية بقتل الشهيد — بطريقة ديمقراطية ايضا — على الخازوق » .

وهو فى هذا يشير الى خدعة المحاكمة ، بذليل قسوة الحكم وبشاعة التنفيذ ، وان لم ينكر الطقوس التى حرص عليها الفرنسيون اثناء المحاكمة والتى اثبتت فى أوراق القضية .

وقد بلغ من اشفال الجبرتى لما يفعله الفرنسيون انه راح يثبت اوراقهم ليس كؤرخ ، وانما ليثبت عدالتهم ، وهو من آن لآخر ، قبل المنشورات أو بعدها ، يردد عبارات « فى طريقته فى دهاوى القصاص ، أوراق القضية بها ضبط الاحكام ، نفذوا الحكم بما اقتضاه التحكيم » بل انه يسمى احكامهم « الفتوى الشرعية » وان (هذه الشريعة والفتوى لازم ينطبعا) . الى غير ذلك مما يتأكد معه ان انبهار الجبرتى بالحيلة وصل الى درجة بعيدة من عدم التحقيق وربما الميل الى احكامهم وما يأتوا به من طقوس لم يقصد بها العدالة التى كان يبحث عنها .

وقد كان الفرنسيون مدركين لهذا جيدا ، فحرصوا على ان يفعلوا ما من شأنه ان يستميل الشعب المصرى بحكمة (الجمهور الفرنسي) ، فمن آن لآخر كانت تصـدر منشوراتهم لتقول انهم استخدموا مع القاتل وسائل التعذيب كعوائد أهل البلد بالضرب على باطن الارجل ، كما انهم استخدموا (الخازوق) بما لا يخرج عن شريعة المنطقة وما الى ذلك . . . مما كان له أكبر الأثر فى خداع عدد كبير من المصريين والعلماء من بينهم الجبرتى نفسه الذى راح يصف مشهد قبض الفرنسيين على الشيخ الشرقاوى — أكثر معارضيتهم — بشيء من الحيدة التامة ، دون ان يعلل لنا فى هذا الموضع الدوافع والاسباب ومعاملته معاملة سيئة الى حد الاهانة لعالم كبير مثله .

وهنا نصل الى قضية نؤثر طرحها لما فيها من اتهم لعلماء الدين ، وهى قضية انحياز أولئك العلماء « الكبار » للحملة ، خاصة فى عهد قائدها الاول نابليون الذى كان يحرص أشد الحرص — كما أسلفنا — على ارضاء أولئك العلماء للتأثير فيهم — أولا — على الشعب المصرى ، والتأثير فيهم — ثانيا — لاستمالتهم ، وقد نجح فى هذا الى حد كبير ، خاصة ، ان بعض أولئك العلماء ، ممن نالوا حظا لابأس به من المعرفة فى القرن الثامن عشر كانوا يتشوقون لاضافة المعرفة الغربية الجديدة من تنظيم ادارى عند الفرنسيين وتقدم علمى ومظاهر حضارة أرقى ، فراحوا — فى الغالب — لا يتخذوا مواقف عنيفة من المحتلين « ولعل

هذا ما جعل هذا الليف من الشيوخ أشد ميلا لمدارة الغزاة ولم تكن لديهم القدرة على الفصل بين مجالات التعاون الثقافي والحضارى ومجالات التعاون السياسى ، بل ان مثل هذا الفصل كان مستحيلا فى ظروف مصر التاريخية آنئذ وطبيعة الحملة التى قادها نابليون الى مصر ، وهى حملة عسكرية وعلمية فى آن واحد .

وهذا التفسير وان برر للعلماء ، فهو يبرر — بالتبعية — لموقف الجماهير التى كانت على حظ ضئيل من العلم والوعى الثقافى ، وهذه على العكس ، لم تسقط فى بئر الحضارة الأرقى ، وانما كانت العقيدة لديها تمثل جدارا عاليا يحول دون الاندماج فى فكر هذه الجماعة الوافدة ، أو ترتكب ما من شأنه ان يهز الهوية القومية ، فجاءت على النقيض رافضة للوجود الفرنسى .

وهذا يؤكد فى كل العصور ان الجماهير تكون أكثر وعيا من السياسيين ، ومن المثقفين أحيانا فى اتخاذ موقف أكثر ايجابية وعمقا معا .

لقد كانت الاجراءات الادارية التى أجرتها الحملة حافزا لهم ليميلوا الى الفرنسيين، غير ان هذا كان يمكن أن يكشف أكثر بعد رحيل نابليون ، حيث لم يهتم كليير كثيرا بالصوت الاسلامى ، كما لم يلتفت فى كثير الى السياسة الوطنية ، بل كان أكثر عنفا من سلفه على المصريين وزعمائهم .

ومما سبق ، نرى ان الجبرتى سقط فى هوة الانبهار ،
التي لم تسلمه — خاصة فى عهد كبير — الى فهم صحيح
للسياسية الفرنسية الجديدة ، فلم يستطع ان يميز جيدا
دوافع الفرنسيين فى الاعلان عن قيام (محكمة) عادلة تنفذ
حكما غير عادل ، وهو حكم وضع مسبقا ، فلم تكن المحاكمة
الصورية الا زريعة لتنفيذه .



(د) عدم فهم الواقع :

كورييه دى ليجييت رقم ٧١

فى ٢٧ بريرال — السنة الثامنة للجمهورية

» من القيادة العامة بالقاهرة / من الجنرال مينو

.. انى استنكر امامكم وامام العالم أجمع ما لجأ اليه
الوزير الأعظم — يقصد العثماني — قائد ذلك الجيش الذى
هزمتوه شر هزيمة فى بطاح المطرية وهليوليس . انه هو
الذى اتفق مع أغا الانكشارية ووضع الخنجر بين يدي
المدعو سليمان الحلبي .. / لقد بدد كبير معكم جحافل
هؤلاء البربر الذين أتوا من أوروبا وآسيا الوسطى للسطو
على مصر » ..

— وجاء فى (عجائب الآثار ..) ، السابق

» وعاقبوه حتى أخبرهم بحقيقة الحال فعند ذلك علموا
ببراءة أهل مصر .. »

« كما يفهم جميع ذلك من فحوى المسطور بخلاف ما رايناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الاسلام ، ويزعمون أنهم مجاهدون وقتلهم الأنفس . الخ » .
ومقارنة النصين تضع بين أيدينا جملة من الحقائق :

لم يكن الجبرى ليفهم الواقع الذى جرى فيه القتل أو جرت فيه المحاكمة الا من وجهة نظر الشيخ الذى كان وشيك الخروج من القرون الوسطى ، وأكثر تحديدا القرن الثامن عشر ، ومن ثم ، فان القول بأنه أنبهر وحسب بمظاهر المحاكمة أو راح يميل الى مستحدثات الحضارة الغربية فقط مما أثر فيه ، فان فى ذلك ظلما للجبرى نفسه .

وفى الواقع ، فان الجبرى كان قد ناله الانبهار ، حقيقة ، لكن تكوينه السلفى كان يسهم فى تكوين وجهة نظره ، وهو ما التقينا معه حين راح يتحدث — فى نظرتة للفرنسيين — عن العلم والعدل .

ولان معنى العدل عند مؤرخ سلفى مثله كان يمثل « الشريعة » فان مظاهر المحاكمة كان قميئا ان ينطلى عليه ، على الاقل ، على المستوى المجازى فرأى فيها فعلة الفرنسيون فى المحاكمة شيئا من العدالة التى عرف كثيرا منها حين كان نابليون يحرص على إبرازها ، منذ فترة مبكرة ، من مجيء الفرنسيين لمصر .

وفى هذا ما فيه من عدم فهم حقيقى لما يخفيه الفرنسيون من مظهر اقامة محكمة علنية لمحاكمة القاتل .

وقد تم ذلك الاقتناع بعدالة الفرنسيين كما يلاحظ « كرابس » فى الفترة الأخيرة لوجود الفرنسيين فى مصر ، وفى السنوات الثلاث السابقة كان دائم الانتقاد لبعض العلماء ، وكان — فى الغالب — منعزلا عن الفرنسيين ، وكان ينظر اليهم ، والى عوائدهم بشيء كثير من الضيق ، لكنه « مع نهاية الوجود الفرنسى وعلى وجه الخصوص بعد اغتيال كليبر شـرع بغير أفكاره » ، فكان حكمه المدون ، أو ما انطلى عليه ، انها هو كمون فكرى طال فيه الصراع بين القديم والجديد .

وقد انتصر الجديد لديه بفعل الفرنسيين حين استراح الى أعمالهم ومواقفهم ومحاكماتهم التشكيلية حتى انه لم يعلق — كما لاحظنا — على وحشية القتل !!

ايضا ، نستطيع ان نبرر للجبرتى ميله الكبير للفرنسيين أو لمواقفهم ، وما نعرفه ان (عجائب الآثار . .) بدأ فى كتابتها عام ١٢٢١ هـ (١٨٠٦ م) ، أى بعد فترة من خروج الفرنسيين من مصر — وهى الفترة التى أسهمت — بفوضى العثمانيين ومذابحهم للمصريين واجرامهم المستمر بها يسميهم معه « اوباش العساكر الذين يدعون الاسلام » ، وهذه الفترة بين عام (١٨٠٠) تاريخ اغتيال كليبر وعام (١٨٠٦) بعد تولى محمد على الحكم ، كانت كافية — لاجداث المقارنة بين أولئك العثمانيين الهمج والفرنسيين المتحضرين ، هؤلاء الذين يقتلون بسبب أو بدون سبب فى قارعة الطريق أو فى

البيوت ، وبين أولئك الذين يأمرؤن بزئش الماء فى الشوارع
واقامة (الكرنيلة) خوفا من المرض واقامة (الحكمة)
لحاكمة هذا القاتل .

وقد كان هذا الموقف بالانبهار موقنا حذرا لم يمنح فيه
المؤرخ الفرنسين مديحا زائدا ، وانما جاء من قبيل المقارنة،
التي لم يستطع ان يقيمها فى كتابه (مظهر التقديس) الذى
تقدم به الى الحاكم العثمانى ، وهو — فيما يبدو — قد
كتب قبل (العجائب) بعدة سنوات ، وربما كان هو السبب
الذى جعل الجبرتى — كما نرى من (عجائبه) — أكثر
تعاطفا مع الفرنسين فى الفترة الاخيرة من وجودهم فى
مصر .

مصادر ومراجع القسم الثانى :

- عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ، عبد الرحمن الجبرتى ، المطبعة العامرية بمصر ، ١٣٢٢ هجرية ، ج ٣ .
- مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين ، طبعة لجنة البيان العربى ، تحقيق حسن جوهر وعمر الدسوقى ، القاهرة ١٩٦٩ .
- تاريخ الفكر المصرى الحديث ، د . لويس عوض ، دار الهلال ، ج ٣ ، بدون .
- ندوة الجمعية التاريخية ، ٢٣/١٦ أبريل ١٩٧٤ بمقر الجمعية بالقاهرة .
- بيتر جران ، الجذور الاسلامية للرأسمالية ، ترجمة محروس سليمان ، مراجعة د . رؤوف عباس ، دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٩٣ ، (وقد تمت مراجعة المقتطفات العربية منه على النص الانجليزى) .
- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، أشرف على طبعه عبد السلام هارون ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٠ ، جزءان .

— عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ،
القاهرة ج ٣ .

— مصطفى محمد رمضان ، دور الأزهر فى الحياة
المصرية ابان الحملة الفرنسية ومطلع القرن التاسع عشر ،
القاهرة ١٩٨٦ .

— محمود الشرقاوى ، عبد الرحمن الجبرتى ، دار
الهلal ١٩٦٦ .

— جاك كرابس جونيور ، كتابة التاريخ فى مصر
القرن التاسع عشر ، دراسة فى التحول الوطنى ، ترجمة
د . عبد الوهاب بكر ، سلسلة الالف كتاب الثانى ١١٨ ،
الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٣ .

— بعض المستندات الخاصة الفرنسية باللغة العربية
مثل كتاب (لغة الشعب) الذى نشره الفرنسيون بمصر
عقب اغتيال كليبر واجراءات المحاكمة موجود منه أكثر
من نسخة فى دار الكتب أو المجمع العلمى المصرى ، كما
علق عليه ونشر أغلبه — الى وقت قريب — د . أحمد
حسين الصاوى فى تابلويد : أخبار الأدب ، التى تصدر
من جريدة الاخبار ابتداء من تاريخ ٢٠ فبراير ١٩٩٤ .

— الحركات الجماهيرية فى الوطن العربى ، اشراف
د . فهيمة شرف الدين ، دراسات الفكر العربى ، معهد
الانماء العربى ، بيروت ١٩٩١ .

— أحمد حسين الصاوى ، فجر الصحافة المصرية ،
دراسة فى أعلام الحملة الفرنسية ، هيئة الكتاب ، القاهرة
١٩٧٥ .

١ — Corrier de L'Egypte وموجودة بدار الكتب
المصرية ، قسم المخطوطات ، تحت رقم ٦١٩ ح ، وتوجد
أعداد كبيرة منها فى مجلد يضم سنوات (١٨٠١ —
١٧٩٩) .

— Pièces diverses et correspondance relatives aux Opérations de l'Armée d'Orient en Egypte, imprimées en exécution de l'arrêté du Tribunat, en date du 7 Nivôse an 9 de la République française. Paris, Messidor an IX.

— LA REVUE D'EGYPTE (Gaillardot)
Tomes II et III (1895. — 1896)

— P. de SANDE et CASTRO : *L'Egypte*
Paris, lille (1901).

— Memoires du Général Baron DESVER-
NOIS, Paris, Plon 1898.

— J. MIOT : Mémoires pour servir à l'Histoire
Expeditions en Egypte et en Paris.

خاتمة

رؤية حضارية مقارنة

(١)

يظل الجبرتي ظاهرة متفردة تماما ، وهذا التفرد يعود
أول ما يعود الى طبيعة المرحلة التي وجد فيها ، فليس من
الضرورى أن يحدد موقف الجبرتي من القوى الدخيلة
على مصر حينئذ بحيث أنه ينطلق من (الموقف) وحسب ،
وانما بالبحث عن مبرره فى محورى الزمان والمكان .

ذلك ، لان موقف الجبرتي الحافظ يمكن أن يمثل
موقفا مقبولا لدينا فى الظاهر ، غير أن تفسير هذه القابلية
يظل سؤالاً حائياً ، فان الاشياء بشكلها الظاهر يمكن أن
تنال شسرعية وجودها كواقع ، أما محاولة فهمها أو
تفسيرها ، فقد يصبح امرا صعب المنال .

وعلى هذا النحو ، حاولنا أن نعيد كشف طبيعة هذه
المغايرة التى نجدها هنا بين الجبرتي كمؤرخ سلفى شرقى
ونابليون كقائد غربى حالم ، الجبرتي كعالم من علماء

الأزهر العزل ، ونابليون كقائد مسلح من أخمص قدميه حتى قمة رأسه بالسلاح الغربى ووسائل التقدم العلمية .

فلنخرج من التفصيل الى الاجمال .

١ - لقد أكد تتابع البنى الثلاث أ ، ب ، ج ، تصاعد دور رجال الدين والتجار فى البنيتين الاوليين ، وهو ما بدا فى كتابات بيدر جران ، بالقدر الذى بدا فى (يوميات) الجبرتى ، وفى يوميات الجبرتى خاصة ، نلمح أنه لا يكف عن تجسيد دور التجار أو الأعيان من المصريين ، وفى موضع يكتب (قبضوا على الحاج مصطفى البشتلى الزيات من أعيان أهالى بولاق) (ج ٣ ص ٧٧) ، وفى موضع آخر يكتب (عمل سارى عسكر وليمة فى بيته ودعا الأعيان والتجار والشيوخ) (ج ٣ ص ٨٠) ، مقدما الطبقة التجارية عن فئة رجال الدين ، وهو ، يعكس الترتيب فى صفحة أخرى فيقول (ذهب أكابر البلد من المشايخ والأعيان لمقابلة سارى عسكر) (ج ٣ ص ٧٩) ، وهذه الاشارات تؤكد على أن دور الأعيان والشيوخ حتى مجيء الحملة كان مؤكدا ، غير أنه بالوصول الى البنية الثالثة فى عصر محمد على (ج) كان قد تدهور وضع الطبقة التجارية أو الرموز الدينية فى وقت كان (ولى النعم / الحاكم) معنيا بتركيز كل شىء فى يد السلطة المركزية ، ومن ثم تضاعل دور النشاط الفردى والطبقة التى كانت تنهيا لتلعب دورا حيويا فى الألق المصرى .

٢ — ومع أن هذا بدا واضحا فى أعمال الجبرتي دون أن يبرر بالقدر الكافى ، فان موقف الجبرتي ، العسائم والخاص ، ترك تداعيات كثيرة . فعلى المستوى الخاص ، كان التراث الاسلامى هو المنطق السياسى للجبرتي فى نظرته للأمور ، فموقفه من الفرنسيين أو بقية الفئات الدخيلة يتسم بهذا التصور ، وهو ما يبرر تأرجح موقفه بين السلب والايجاب الذى فهم به موقفه من المالك أو الحملة الفرنسية أو — حتى — محمد على .

وهذا فى السياق الاخير يعنى امرا واحدا ، هو ، أن موقفه كان يحدده فهمه لمصطلح العدل أو الحرية أو الحاكم وما الى ذلك من المصطلحات السياسية ، ففى حين أبدى اعجابه بمنجزات المالك فى فترة ، عاد فى فترة أخرى منتقدا لتصرفاتهم ، وهو ما فعله مع الفرنسيين ، وهو موقفه العام ، أيضا ، من سياسة محمد على ، ففى حين كان من أكبر المعارضين لاسلوب هذا الحاكم ، فإنه لم يستطع أن يخفى اعجابه باصلاحات (الوالى) وهمة الكبيرة حين تعلق الأمر بمصلحة الدولة .

أى أن موقفه كان تعبيرا ذاتيا .

هذا على المستوى الخاص ، أما على المستوى العام ، فان موقفه السلبي أو الايجابى ، لم يكن خاصة ذاتية له ، وانما كان نابعا من الفكر الذى يمثله . فهذا الفكر يوجد عادة قبل التعبير عنه أو ممارسته بأى موقف ، ومن هنا ،

فان الواقع الشرقى فى فترة الحملة الفرنسية لم يكن نابعا من رد الفعل ازاء الحضارة الغربية ومنجزاتها ، بقدر ما كان نابعا من (الاصولية) التى تتعمق بجذورها فى البيئة الشرقية .

أى ، أن موقفه كان تعبيرا شرقيا . .

وهذا يرتبط بموقفه الحضارى من القوى الدخيلة على مصر ، اذ لم يكن نابعا من خاصيته الذاتية ، ذلك ، لاننا نستطيع أن نرى — كما يذهب البعض — أن الفاعلية فى المجتمع ليس هو الفرد ، وانما «مجموع الاعمال الانسانية لطائفة اجتماعية» ، ومن هنا فان الفاعلية تظل لجماعة لا لفرد ، والرد فعل اجتماعى وليس لنزع ذاتى .

أى ، أن موقفه كان تعبيرا اجتماعيا .

صفوة القول ، أنه يمكن أن يعد موقف عبد الرحمن الجبرتى (موقنا) حضاريا فى مواجهة موقف حضارى آخر ، مغاير له فى الطبيعة ، مساو له فى القدر .

(٢)

لقد كان موقف عبد الرحمن الجبرتى العالم نابعا من الموقف الذى مثله العلماء ، والعلماء فى فئتهم العليا ، حيث كانوا منذ قرون عديدة يتمتعون بمكانة كبيرة ، وان اهتزت

فى بعض العصور ، غير أنها — بوجه خاص — كانت تمنح صاحبها القيمة والمكانة اللائقين به ، وقد تمثلت هذه المكانة فى الصلوة الدينية متخذة حركة بعث خلال الانخراط فى الطرق الصوفية ، اذ يرى بيتر جران أن الفترة بين عامى ١٧٦٠ ، ١٧٩٠ (أى قبل مجىء الفرنسيين بأقل من عشر سنوات) كانت هى قمة نشاط « الطريقة » التى تنتهى الى الطبقات العليا أو الدنيا حسب معايير ذلك الوقت والتى تتمثل فى القيادات البارزة ، وان اتسعت الفجوة بعد ذلك بين الاغنياء والفقراء .

وهذا يفسر ان الموقف من الفرنسيين يكون رد فعلًا للسلفية الاسلامية ازاء الحضارة الغربية ، وهو رد فعلًا حضارى فى المقام الاول يمثل 'خين فيه — رغم أهميته القصوى — موجة عالية من موجات التيار العالى فى الصراع بين الشرق والغرب .

والجبرتى — كأحد أولئك العلماء الكبار — تطور لديه مشهد الصراع الحضارى بين العقليتين : الاسلامية والغربية ، وذلك من خلال مفردات الصراع :

١ — جاءت الحملة الفرنسية ، كما اثّرنا ، لتباعد بين خيوط النسج المحلى فى « عملية التحديث التى بدأت قبل وصول الغرب » على حد تعبير بيتر جران ، فضلا عن المنافسة بين الدول الرأسمالية الغربية التى أضرت بمصر .

٢ - جاء رد فعل العلماء مشوبا بالاعجاب ، خاصة
 اول الامر ، غير أن المدقق يلحظ أن الفترة التالية ، وخاصة
 منذ تولى كليبر ومقتله ، حولت الاعجاب الى انبهار بمظاهر
 محاكمة الحملة لسليمان الطبقى غير أن هذا الانبهار كثيرا
 ما كان يخفتى ، ويحل محله الاستياء الشديد ، فقبل اغتيال
 كليبر توالى المتن والقتل والتفسيريم الى أقصى مدى
 (خاصة عقب ثورة القاهرة الثانية) ، ويعد كليبر ذاق
 المصريون الأمرين لفرض الضرائب الباهظة والقتل بشكل
 مستمر رغم ادعاء العدل والانصاف .

والجبرتي نفسه يسهب فيها لاقاه أهل (بولاق) من
 المجازر والتقتيل ويصفه بأنه « يشيب من هوله النواصي »
 ج ٣ ص ، ويضيف « وصارت القتل مطروحة فى الطرقات
 والأزقة واحترقت الأبنية والدور والقصور » ، ويحكى
 الجبرتي أيضا كيف تعامل كليبر بعنف مع العلماء وهددهم أنه
 كان جزاؤهم « كما فعلنا مع أهل بولاق » ، وهو يستبدل
 بهذا الأموال الطائلة « المطلوب منكم عشرة آلاف ألف
 فرنك عن كل فرنك ثمانية وعشرين فضة يكون فيها ألف
 ألف فرنك عنها خمس عشرة خزنة روسى بثلاث عشرة
 خزنة مصرى منها خمسمائة ألف فرانسه » ص ١١٢٢ ،
 وبعد اغتيال كليبر نقرأ أيضا « قرروا فردة أخرى وقدرها
 أربعة ملايين وقدر المليون مائة وستة وثمانون ألف
 فرانسه » .. الى .

وهنا يتأكد لنا أن الانبهار لم يأت من العدل أو الانصاف
اللذين زعمهما الفرنسيون ، وانما هو من بعض السلوكيات
أو المواقف القليلة التي جاءت بها الحملة في أول وجودها
في مصر خاصة الفترة البونابرتية ..

٣ — تبقى عندنا قضية هذا (الانبهار) الذي يظهر
ويختفى من آن لآخر عند مؤرخ كبير مثل الجبرتي طيلة
(العجائب) وهي قضية يمكن فهمها ، اذا عرفنا أنه كتب
(العجائب) تحت مؤثرين :

أولا : انه كتب بعد خروج الفرنسيين من مصر بعدة
سنوات (١٨٠١ — ١٨٠٥) وهي الفترة التي شهد فيها
المصريون أعتى صنوف الاهانة والفساد على يد العثمانيين
وأوباشهم من العائدين باسم المسلمين بعد خروج
الفرنسيين .

ثانيا : ان الدعاية الفرنسية في مصر استطاعت خداع
عالم كبير مثل الجبرتي ، جعلته لا يرى في قاتل كبير الا
(آفاقي) وجعلته يرى مظاهر المحاكمة من مظاهر العدل
وهي كلها أشياء انطلقت على الكثيرين ، خاصة ، ان
الجبرتي كان أحد أفراد الديوان الذي ألف في هذه الفترة ،
وقد كان يخصص لهم مخصصات مالية ضخمة ، كما جاء في
تاريخ الجبرتي نفسه ، اذ لا يمكن ان نتجاهل تأثير اختيار
عدد من العلماء يوهمون ان الحكم في البلاد لهم ثم
يحصلون على مبالغ كبيرة .

وحين يتحدث عن ترتيب الديوان فى أول عهد مينو يتحدث عن صفات العلماء (المعممين) فيه وحين يذكر أسماءهم فانه يجرى الى اسمه ولا يكتب صراحة بل يكتب مكانه (وكتبه) وهذا أمر محير بالنسبة الى المؤرخ السابق .

ولا نستطيع أن نتهم الجبرتى بالرشوة — بالطبع — غير أننا لا نستطيع أن نفسر موقفه الملاين أو المهادن فى اعتبارنا عدة وسائل اتخذها الفرنسيون ، وقصد بها خداع العلماء ، ونجحوا فى ذلك الى حد كبير .

٤ — بيد أننا نظل أمام قضية لا نستطيع أن نبررها ، ولا نملك من الأدلة ما نستطيع بها أن ندافع عن الجبرتى ، فإذا افترضنا — وهذا خطأ — أنه لم يستطع تحديد هوية سليمان الطبى وتعامل معه على أنه خارج على القانون (وليس رد فعل لراى عام اسلامى عام مع الوضع فى الحسبان كل الأطر التى انتهت به الى هذا الفعل) . . . نقول ، اذا افترضنا ذلك ، فكيف لم يتنبه الجبرتى لقضايا أخرى كثيرة أثرتنا اليها من مثل :

— كيف انطلت عليه المحاكمة ؟

— كيف لم يستطع ان يفهم دوافع الفرنسيين ؟

— كيف لم يشر ، ولو من طرف خفى ، الى وحشية القتل وهول التعذيب الذى تعامل بها الغرب مع سليمان الطبى وشركائه ؟

اننا لا ندافع عن سليمان الحلبي أو ننتهم الجبرتي ،
ولكن ندهش حين نعرف ان هذا الحكم القاسى أجرى تحت
سمع وبصر الجبرتي ، ومع ذلك ، فانه لم يجعله يدهش
أو يغضب امام قسوة الحكم وبشاعته .

ان هذا الحكم لم يستخدمه غير فيرون فى تعذيب
مخالفيه ، واستخدم — قديما — فى بلاد فارس وتركيا
والشرق الاقصى وروسيا — لكنه كان قد ألغى فى مصر
تماما ، وعلى افتراض قبل مجيء الفرنسيين ، تمشيا مع
ما رددته هيئة المحكمة الفرنسية أنهم يستخدمون قصاصا
كان متبعا لدى أهل البلاد .

وفى رأينا ، ان الخازوق كان عقابا يتسم بالعنف
والقسوة الشديدة ، وهى سمات تعكسها هذه الحضارة
الغربية وريثة القرون الوسطى حضارة الغرب العنيفة .

وهو موقف لم ينتبه اليه مؤرخ سلفى مستنير كبير مثل
عبد الرحمن الجبرتي ؟

ه — بقى السبب المباشر الذى جعل الجبرتي يبدى
الكثير من الانبهار الذى بدا أقرب من الاعجاب بالفرنسيين
وهى (حالة) يمكن ان نلاحظها ببساطة عقب خروج
الفرنسيين من مصر ، ويمكن تفهمها من السبب الذى
جعله يعاين ممارسات محمد على فى الحكم ، فبينما كان
اهم ما يميز الفرنسيين ان هؤلاء (الكفرة) رغم عقيدتهم ،

كانوا يحرصون على (العدالة) ولو حتى فى شكلها
الصورى ، اما فى الفترة الأولى من حكم الوالى ، فان
مارساته لم ترض تطلعات الجبرى الى هذه العدالة ،
فديكتاتور مصر الجديد الذى أجهز على المحاولات العثمانية
— المملوكية بالسلاح مستعينا بطبقة العلماء ، مالبث بعد
ان استقرت له الأمور أن أرتد على خلاء الامس فيوقع
بينهم الضغينة ، ثم يتخلص منهم الواحد بعد الآخر .

معنى هذا عند الجبرى ان الوالى الجديد لم يحفل
بالتعامل الطيب مع العلماء ، وأسرف فى العنف لتوطيد
حكمه ، بيد أنه يشفع للجبرى انه لم يخطئ ذكاء الحاكم
الجديد ، ولا تخلو هذه العبارة من معنى دال حين دونها
الجبرى فى نهاية تاريخه عن الحاكم ، يقول :

« قلو وفقه لشيء من العدالة على ما فيه من الرئاسة
والشهادة والتدبير والمطاوله فكان أعجوبة زمانه وفريد
أقرانه » .

(العجائب ج ٤ ص ٢٥٨) .

وباختصار ، لم يستطع الجبرى ، السلفى ، ابن القرن
الثامن عشر ، غير أن يظهر انبهاره ، لا اعجابه المطلق ،
بالفرنسيين ، كما لم يستطع بهذا التكوين ابداء الاعجاب
الخاص بمحمد على ، اذ كان لابد للحاكم الجديد من أن
يقوم بعدة اجراءات حازمة تقربه من ثبات ملكه وتنتهى

الفوضى التي كانت تهر بها البلاد بعد سنوات من خروج
الفرنسيين، وهو ما جعله يتعد عن (العدالة) في منظور
المؤرخ ..

لقد كانت مصر — على ما يبدو — تخرج من القرن
الثامن عشر في الشرق ، — ولكن — الى القرن الثامن
عشر الغربي .

* * *

• الملاحق

(نمونجان من كورييه ييجييت)

COURIER DE L'EGYPTE.

N^o 49457 N.^o 1.^{er} *L^{re} 135*

LE 12 FRUCTIDOR, VI.^e ANNÉE I E LA RÉPUBLIQUE.

NOUVELLES.

Cosia, 27 messidor au 6. Le vaisseau de guerre le *Stengel* est arrivé d'Ancone dans ce port, escortant un convoi de trois mille Français qui sont venus pour renforcer la garnison des îles Ioniennes.

La prise de Malte par la France a fait ici une joie universelle. Les départemens d'Italie, de Corse et de la mer Egée sont dans la situation la plus satisfaisante; il y règne le plus grand enthousiasme pour la liberté, et le plus grand attachement à la mère patrie.

De Jauiza, le 15 messidor. Notre Flotte est toujours sous les murs de Widdia, commandant en second l'armée du grand seigneur sous le capitaine-pacha, qui est destinée à faire la guerre à Passawan Oglou qui reprend toujours de nouvelles forces. Après le combat malheureux où notre armée a perdu 700 hommes, et a été obligée d'abandonner le champ de bataille, l'armée de ce rebelle s'est encore augmentée.

Il y a quelques jours, est arrivé ici l'adjutant général Rose, qui a eu une audience de cérémonie du fils du pacha; à l'issue de laquelle il a été expédié au courrier sur un dromadaire, portant au pacha une dépêche extraordinaire.

Malte, 25 messid. La fête du 14 juillet

s'est célébrée ici avec la plus grande pompe. Les bienfaits de la liberté se font sentir dans toutes les classes; il n'est pas un seul Maltais qui ne bénisse l'heureux changement qui a eu lieu.

Trois frégates anglaises bloquaient notre port. Le vaisseau de guerre le *Dege* et la frégate la *Carthagoise* sont sortis pour leur donner chasse.

Le vice-roi de Sicile avait refusé de nous donner des vivres; mais sur les instances de notre ambassadeur à Naples, il vient de permettre l'exportation de la Sicile. Au reste nous avons du bled pour la garnison et les habitants pour dix-huit mois.

Tripoli, 28 messidor. Le pacha de Tripoli, dès l'instant qu'il a eu reçu la demande du Général en Chef, de mettre en liberté tous les esclaves maltais (le Général en Chef lui avait envoyé une grande quantité de Tripolitains et autres esclaves turcs) les a envoyés par un bâtiment à Malte, avec une grande quantité de bleds et de fruits, et quatre superbes chevaux de race dont il a fait présent au général commandant à Malte.

Exendrie, 14. La ville est environnée de soldats et d'équipages de nos vaisseaux, provenant de l'Exendrie. Tous les prisonniers ont été rendus.



COURIER DE L'EGYPTE.

N.^o II.

LE 20 VENDÉMAIRE, VII^e. ANNÉE DE LA RÉPUBLIQUE.

NOUVELLES.

SYRIE.

On assure qu'Ibrahim-bey a envoyé auprès de Djeddar pacha, Mustapha-bey le grand, afin de l'engager à se réunir à lui pour marcher contre les Français ; Djeddar pacha l'a fait arrêter. Alors Ibrahim lui a envoyé sa femme et sa fille, mais elles n'ont pas été plus heureuses ; Djeddar pacha les a renvoyées, en annonçant à Ibrahim qu'il ne se fait point à toutes ces promesses, et qu'il connaissait trop bien la manière dont les bey's témoignaient leur reconnaissance à ceux qui les servaient, pour être tenté de retourner pour eux ; quo d'ailleurs l'exemple d'Osman-bey el-Fodai, exilé par eux dans le Saïd, après avoir contribué à établir leur puissance, n'était pas fait pour les rassurer.

ÉGYPTE.

Bahy, le 2 vendémiaire.

Hier à sept heures du matin, en conséquence de l'ordre du Général en Chef, du 11 fructidor dernier, et conformément

à ceux du général divisionnaire Ragnier, se sont rassemblés hors de l'enceinte de leur camp, les 2.^e et 3.^e bataillon de la 9.^e demi-brigade d'infanterie de ligne ; un détachement du 6.^e bataillon de sapeurs, pour célébrer l'anniversaire de la fondation de la République et du renversement de la monarchie.

Le général Reynier, accompagné de son état-major, du divan de la province de Charqyeh, et de la compagnie des Janissaires, s'est rendu au lieu de la réunion ; et après avoir fait placer le drapeau tricolore au plus haut minaret, et fait exécuter aux troupes plusieurs évolutions militaires, il a prononcé un discours, ainsi que l'adjudant général Beauvais. Ces deux discours ont été suivis des cris mille fois répétés de *vive la République*, et de plusieurs coups de canon. Les troupes ont ensuite défilé au son de la musique militaire qui a exécuté plusieurs airs et marches patriotiques. La fête a été terminée par une course arabe, exécutée par les Janissaires de la province.

KAIRE.

C'est principalement lorsque l'on est éloigné de sa patrie, que l'on se rappelle

لمصطفى عبد الفنى :

- مؤرخو الجزيرة العربية
- المؤثرات الفكرية فى الثورة العربية
- شهرزاد فى الفكر العربى الحديث (ط ٢)
- الوداع . . ترجمة آخر اشعار اراجون
- الحصار — مسرح شعرى
- الخروج من المدينة — مسرح شعرى
- عبد الرحمن الشرقاوى متمردا
- فى دائرة النقد
- طه حسين والسياسة — ١
- تحولات طه حسين — ٢
- طه حسين وثورة يوليو — ٣
- المسرح المصرى فى السبعينات — ١
- مسرح الثمانينات — ٢ (ط ٢)

- البنية الشعرية عند فاروق شوشة
- نجيب محفوظ : الثورة والتصوف
- الخروج من التاريخ : مدن الملح
- المثقون وعبد الناصر
- زكى نجيب محمود
- الاتجاه القومى فى الرواية (عالم المعرفة)
- المثقون والسادات
- المثقون والخليج — مصر
- أحمد بهاء الدين — سيرة قومية
- الجبرتى والغرب
- القصة المصرية القصيرة
- (استنتاجات شخصية)

الفهرس

مقدمة ٥

تمهيد :

مصر قبل الحملة الفرنسية ١٣

القسم الأول :

الجبرتي وفترة بونابرت ٢٩

القسم الثاني :

الجبرتي ومقتل كليبر ١٠٥

الخاتمة :

رؤية حضارية مقارنة ١٤٣

الملاحق ١٥٧

رقم الايداع ١٩٩٥/٣٣٧٦

الترقيم الدولي 1 — 4325 — 01 — 977 I.S.B.N.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

هذه محاولة لرصد أول مواقف الإحتكاك بين الشرق والغرب فى العصر الحديث، وهى محاولة تعمدت التوقف عند سنوات بعينها، حين جاء الغرب ليفزوا الشرق خلال حملة نابليون بونابرت على مصر، واستخدمت هذا التحليل المقارن بين نصين «عجائب الآثار» لعبدالرحمن الجبرتي والكورييه ديجيت، صحيفة الحملة الفرنسية.

وكان الهدف الأول من هذه المحاولة هو استخلاص القانون، الذى نستطيع فى ضوئه تفهم إستجابات الغرب حيال الشرق والشرق حيال الغرب، فى الفترة التالية والتي تمتد إلى اليوم والغد.

الكتاب القادم:

قراءة فى دواوين عبدالرحمن شكرى
عبدالفتاح عبدالمحسن الشطى

13

BEHOLDEN ALEXANDRIA

مكتبة
البحر
المتاح



0253454